وكانوا لنا عابدين

أ.د. ناصر بن سليمان العمر
المشرف العام على موقع المسلم
WWW.almoslim.net

الطبعة الثانية

دار الحضارة للنشر والتوزيع

هذا الكتاب تم تنزيله من موقع العقيدة

www.aqeedeh.com

العنوان البريدي: book@aqeedeh.com

بعض المواقع الإسلامية النافعة باللغة الفارسية

www.aqeedeh.com
www.islamtxt.com
www.ahlesonnat.com
www.isl.org.uk
www.islamtape.com
www.blestfamily.com
www.islamworldnews.com
www.islamage.com
www.islamwebpedia.com
www.islampp.com
www.videofarda.com
www.nourtv.net
www.sadaislam.com
www.islamhouse.com
www.bidary.net
www.tabesh.net
www.farsi.sunnionline.us
www.sunni-news.net
www.mohtadeen.com
www.ijtehadat.com
www.islam411.com
www.videofarsi.com

﴿ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر سليمان

وكانوا لنا عابدين./ ناصر سليمان العمر - ط٢

الرياض: ١٤٣٢هـ

١٩٦ ص؛ ١٦ × ٢١ سم

ردمك: ١ - ٨٣٧٠ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- العبادات (فقه إسلامي) أ. العنوان

ديوي ٢٥٢ ١٤٣٢/٨٩٣١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٨٩٣١

ردمك: ١ - ٨٣٧٠ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

المقدمة[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ،

---

(١) أصل هذه الرسالة دروس ألقيتها في العشر الأواخر من رمضان عام (١٤٢٦هـ) في مسجد خالد بن الوليد في الروضة بالرياض وساهم في إعدادها بعض الأخوة كالشيخ عبدالله الغفيلي والشيخ زياد العامر وغيرهما فجزاهما ربي خيراً.

وإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إخوة الإسلام في خضم أمواج الحياة المضطربة، وبسبب كثرة الأشغال، وتزاحم الواجبات مع ضيق الأوقات، تغيب عن أذهان كثير دعاة الإصلاح مشايخ ودعاةً وطلاب علم، ومن مربين وآباء وأمهات، بعض المفاهيم التي كان حرياً بها ألا تغيب عنهم، فيبتعدون عن غير قصد عن منهج أئمة الإصلاح والمصلحين من أنبياء الله ورسله الكرام عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام، فتبعد بهم خطواتهم عن طريق الإصلاح وهم ما أرادوا إلاّ سلوكه، وتضيع الأشهر والسنون، ثم يقف الواحد منهم مراجعاً ما مضى ليتلمس حصاد ما زرعه فتفجعه النتيجة، حيث لا يرى ما كان يؤمِّلَه.

إن كثيراً من الآباء والأمهات، يشكون من قلة تأثيرهم في أبنائهم، وعدم قدرتهم على إحداث التغيير المأمول فيهم، وكثير من المربين يشكون الشكوى نفسها فيما يتعلق بتلاميذهم، ويتكرر الأمر على مستوى علماء الأمة ومصلحيها كذلك، فلا

نرى ذاك التأثير الذي كنا نراه ونسمعه عن سلفهم القريب والبعيد، بل نكاد نجزم أن هذا الضعف والهوان الذي أصاب الأمة من أهم أسبابه فقد تلك القدوات المؤثرة. ومع أن المرء غير متعبد بالنتائج، بل هو مطالبٌ بالعمل والسعي فحسب، إلا أن مُرَّ الحصاد قد يكون من سوء البَذر. فإذا رأينا أن النتائج لم تتحقق فالواجب علينا أن نعود بالمحاسبة على أنفسنا أولاً، فإن وجدنا خللاً أصلحناه، وإن وجدنا صواباً مضينا فيه، لعلمنا أن واجبنا هو العمل وإصلاح العمل، وأما النتائج فليست لنا، إنما هي لله جل وعلا.

إن الأمة بفضل الله ومنته تسير منذ أكثر من خمسين عاماً من خير إلى خير ومن نشاط إلى نشاط، وأبرز مظاهر هذا الخير والنشاط هو ما نراه من إقبال الناس – وبخاصة الشباب-على الله، وعودتهم زرافات ووحداناً إلى هدي محمد ﷺ فصارت الصحوة الإسلامية أمراً واقعاً فرض نفسه على الجميع، فلا ينكره إلا مكابر.

وبرغم ذلك فإننا نرى تسلط الأعداء على بلادنا ومقدراتنا، ونرى الضعف والهوان في الأمة يزداد يوماً بعد يوم، مصداقاً لقوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

فهذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ، فهو ناطق بحالنا اليوم إذ تحقق ما فيه-من سبب الداء-بعد ألف وأربعمائة سنة، ولا سبيل إلى العلاج، إلا بما وصفه عليه السلام في الحديث الآخر من دواء بقوله: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[2]، فها هو الداء، وها هو الدواء من يد خير الأطباء -بأبي هو وأمي-.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥١٤ (٤٢٩٧) وصححه الألباني.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٦ (٣٤٦٢) وصححه الألباني.

والرجوع إلى الدين لا يكون في جوانب دون أخرى، بل لا بد من تدارك كل جوانب الخلل والتقصير كما قال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، أي: ادخلوا في شرائع الإسلام كلِّها[1].

فإذا أردنا أن تتغير حالنا وحال أمتنا، فالبداية إنما هي من تغيير ما بأنفسنا أولاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد:١١].

والخطاب في هذه الآية ليس موجهاً للعلماء وحدهم، ولا للدعاة بمفردهم، بل كل فرد من أفراد المجتمع المسلم مخاطب بها، فما المجتمع إلا مجموعة أفراده، فالأب مخاطب والأم مخاطبة، والمدرس مخاطب، والمربي مخاطب كذلك، فإذا وجدنا أبناءنا، وبناتنا، وطلابنا، ومَن حولنا، لا يتأثرون بنا، ولا يتغيرون التغير المرجو منهم، فعلى كل واحد منا أن يرجع إلى نفسه لينظر أين هو من الآية الكريمة؟ وهل غيَّر ما بنفسه حتى يغيرُ الله ما به ثم بعد ذلك يأتي تغيير الآخرين، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه!

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٥.

إن من أسهل الأمور أن يلقي الإنسان بالتبعة على غيره، فيرجع باللوم على الناس، ويجعل فساد حالهم هو سبب تأخر الإصلاح، ويتنصل من كل مسؤولية، وفي مثل هذا قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**»[1]، وفي (أهلكهم) روايتان مشهورتان: (أهلكُهم) بالضم، أي: أنه أكثرهم هلاكاً، و (أهلكَهم) بالفتح، أي: أنه هو من جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا على الحقيقة، وعلى التقديرين فالذم متوجه لمن يرى لنفسه فضلاً على الناسِ[2]، فينبغي للمصلح قبل أن يتهم غيره أن يتهم نفسه، فيوقن أن عدم تأثيره فيمن حوله، أو قلة تأثيره فيهم، إنما كان بسبب تقصيره هو في المقام الأول، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

نعم، إن عدم تأثير المصلح فيمن حوله قد يكون لأمر آخر خارج عن قدرته وإرادته تحقيقاً لمشيئة الله وقدرته، ولله في ذلك

---

(١) مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٣).

(٢) ينظر شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٥.

حكمة بالغة، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، لكن هذا لا يُركن إليه إلا بعد أن يبذل المصلح كلَّ ما في وسعه في سبيل الإصلاح، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، ففرق الله سبحانه وتعالى في الآيتين بين هدايتين، فشهد لنبيه عليه السلام في آية الشورى أنه يهدي الناس، أي: يرشدهم إلى صراطه المستقيم سبحانه، فهذا هو واجب المصلحين، ونفى عنه عليه السلام في آية البقرة أنه يهديهم، أي: يوفقهم إلى السير على هذا الصراط، فليس هذا إلا لله.

ونحن في هذه الرسالة، سنحاول - بإذن الله- عبر بعض الوقفات- وضع أيدينا على واحد من أهم أسباب الانحراف في مسيرة قافلة الإصلاح، ألا وهو ضعف الجانب التعبدي عند بعض المصلحين على تنوع مواقعهم، على أمل العودة بالقافلة إلى السبيل التي كان عليها العلماء الربانيون، والأئمة المصلحون، الذين اقتفوا

آثار الأنبياء عليهم السلام، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ؛ فأثمرت دعواتهم وآتت محاولاتهم للإصلاح أُكُلَها.

وقد أسميت الرسالة - تيمناً - بما أثنى به رب العزة والجلال على صفوة خلقه من أنبيائه ورسله حيث زكَّاهم فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

[وقد صدرت الطبعة الأولى من الرسالة ووجدت بحمد الله قبولاً، وهذه طبعة مزيدة منقحة أضفت فيها مبحثاً مهماً عن أثر العبادة في الثبات عند الفتن]. (١)

فاللهَ أسأل أن ينفع بهذه الكلمات كاتبها وقارئها وأن يجعل ما فيها عوناً للجميع على تصحيح المسار والعودة بقافلة الإصلاح إلى ما كان عليه الرعيل الأول، ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إخراج هذه الرسالة وأخص الأخوة في المكتب

---

(١) ما بين القوسين جملة مزيدة في هذه النسخة، وبقية المقدمة هي مقدمة الطبعة الأولى بتاريخها المثبت آخر المقدمة، وسوى التنقيحات قد أضيفت بناء على اقتراح من شيخنا عبدالعزيز العقل، فجزاه الله عني وعن الإسلام والمسلمين خيراً وبارك في عمره وعمله وألبسه الصحة والعافية ١٢/ ١٤٣١هـ.

العلمي وكذلك كل من بذل جهداً حتى وصلت إلى القاريء الكريم، ولا استغني عن أي ملحوظة معتبرة لمراعاتها في الطبعات القادمة بإذن الله، والله ولي التوفيق.

المؤلف

٧/ ١٠/ ١٤٢٩هـ

الوقفة الأولى

الجانب التعبدي... الواقع والأسباب

إن الناظر في واقع الصحوة الإسلامية اليوم، يجد نشاطاً ملحوظاً في جوانب تحفيظ القرآن، وطلب العلم ونشره، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجد نشاطاً مشكوراً في جوانب عمارة المساجد، وكفالة الأيتام، وإعانة المحتاجين، لكنه يلحظ في الوقت نفسه ضعفاً في الجانب التعبدي لدى شريحة واسعة من أبناء الصحوة، وليس المقصود بضعف الجانب التعبدي التقصير في أداء الواجبات، فهذا إن وجد عند بعضهم فلا يصل إلى درجة الظاهرة، بل المقصود هو الاقتصار في العبادة على الواجبات، مع التساهل في المندوبات والمستحبات، وبرغم أن هذا قد يجر إلى ما هو أخطر منه، وهو التقصير في بعض الواجبات لشبهة يلقيها الشيطان، إلا أننا لن نتوقف كثيراً عند هذه القضية وسنركز كلامنا على التقصير في العبادات المستحبة والمندوبة.

إننا نسمع بكثير من طلاب العلم والدعاة، ونسمع بكثيرٍ من المحسنين وأهل الخير، لكننا لا نكاد نسمع بالعُبَّاد إلاّ قليلاً، قد صاروا في عصرنا عملة نادرة، بينما المطالع لسير المصلحين عبر تاريخ الأمة، يجد عندهم تكاملاً بين العلم والدعوة والعبادة، بل إنه يجد صور الجد والاجتهاد في العبادة بادية ظاهرة في سيرهم التي تزينت بها كتب التراجم والطبقات، فالواقع المشاهد اليوم مختلف عن واقع سلف الأمة الصالحين، فلا عجب أن تختلف ثمرات الواقِعَين.

إن هذا الاختلاف في الواقعَين يدل على خلل كبير في إدراك كثير من الناس؛ من الآباء والأمهات والمربين، وبعض طلبة العلم والدعاة، لأهمية العبادة وأثرها على صلاح الفرد والمجتمع، ولذلك عندما نسمع من يقول: إن أولادَنا، أو زوجاتنا، أو طلاّبنا، لا يتأثرون بنا، ينبغي أن نبين له أن السبب الرئيس ربما كان في تقصيره في عبادته، وفي الفهم الخاطئ للعمل القاصر والمتعدي كما سيمر معنا.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا زهد كثير من المربين والدعاة وبعض طلاب العلم في العبادة، من صلاة، وصيام، وذكر، وقراءة قرآن، بل لماذا زهد بعضهم في إصلاح القلوب؟

هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه فيما يأتي في سبيل العودة إلى ما كان عليه سلفنا الصالح.

ولعل من أهم الأسباب ضعف الإيمان، وبالأخص فيما يتعلق بأعمال القلب، من الخشية، والمراقبة، والإخلاص، والمحبة، والتعظيم لحرمات الله، وغير ذلك.

فإن الإيمان إذا قوي في القلب ظهر أثره في أعمال الجوارح؛ من صلاة وصيام وذكر... إلخ. والعكس صحيح؛ ضعف أعمال الجوارح أثر من آثار ضعف الإيمان. ومما ساعد على وجود هذا الضعف عوامل شتى منها:

السبب الأول – دعوى الانشغال بالأهم:

إن مما لا شك فيه أنه عند التعارض بين المصالح تقدم أعلاها، وعند التعارض بين الواجبات يقدم أوجبها، وعند التعارض بين المندوبات يقدم أولاها، لكن هذا يحتاج إلى أن

يكون الإنسان فقيهاً بنفسه وما يصلحها، فقيهاً بما يعرض عليه من المتعارضات كي يقدم الأهم فالمهم.

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- ستة أنواع من حيل الشياطين التي يأتون بها بني آدم ليغووهم، آخرها ما يحتالون به على من نجاه الله من الكفر، والبدعة، والكبائر، فالصغائر، فالتوسع في المباحات، فقال رحمه الله: «نقلوه إلى الطاعات المفضولة الصغيرة الثواب، ليشغلوه بها عن الطاعات الفاضلة الكثيرة الثواب»[1].

إن كثيراً من المصلحين يعلل تقصيره في الجانب التعبدي بانشغاله بما هو أهم، وهذا إن صحَّ حيناً فلا يمكن أن يصح دائماً، وإن صح في بعض الأمور فلا يمكن أن يصح في جميعها، فالانشغال عن العبادات بالأهم، استثناء لا ينبغي أن يكون هو القاعدة.

والخطير هنا هو أن يختل الميزان الذي به تُقاس الأمور، فيقع المصلحون بسبب هذه الحجة في الإثم، كما ذُكر أن بعض من

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٣٣٠.

ذهب للجهاد في بلاد الأفغان كانوا يتدارسون أمراً من أمور الجهاد، فلما نبههم بعضهم إلى أن صلاة العشاء ستفوتهم قال له أكبرهم علماً وسناً: «نحن مشغولون بما هو أهم»، يريد بالأهم البحث عن وسيلة من وسائل نصرة المسلمين والتمكين لهذا الدين، لكن الله ﷻ بين سبيل التمكين فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور، من الآية:٥٥]، فلم يكف الإيمان البارد وحده بل لا بد من عمل الصالحات، فكيف إن كنا سنضيع الصلوات!

لقد فاتت رسول الله ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب، لكن نظرة إلى موقفه عليه السلام من ذلك، تعطينا تصوراً واضحاً عن الفرق الكبير بين المثال السابق وما حصل يوم الأحزاب، وتبين بجلاء خطورة اختلال الميزان، فعن علي رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً؛ شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[1].

---

(١) البخاري ٣/ ١٠٧١ (٢٧٧٣) واللفظ له، مسلم ١/ ٤٣٦ (٦٢٧).

فرسول الله ﷺ لم يكن منه ذلك وهو يتدارس أمر الجهاد قبل المعركة، بل كان في قلب المعركة يوم الأحزاب، يوم زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وأتى المسلمين ما يشغلهم، لكن غضبه عليه السلام لفوات الصلاة، يدل على أنه لم ير أن ما كانوا فيه أهم من إقامتها! وكيف يكون الأهم وقد أمره الله سبحانه وتعالى لعظم أمر الصلاة أن يصلي بالمسلمين في ساح المعارك صلاة الخوف؟ أم كيف يكون الأهم وما أثر عنه عليه السلام قط أن شيئاً أهم من الصلاة يمكن أن يشغل عنها حتى يخرج وقتها؟

فدعوى الانشغال بالأهم، يجب أن توضع لها ضوابط واضحة محددة مستمدة من الأصول الشرعية، كي لا تكون مدخلاً للشياطين ليتنزلون بها الدعاة والمصلحين.

السبب الثاني-دعوى التعارض والتزاحم:

وهذه قريبة من سابقتها، والفرق أن صاحب هذه الدعوى يقر بلسان مقاله بأهمية الجانب التعبدي، وأنه ليس أقل أهمية مما هو فيه، لكن لسان حاله ينبئ عن غير ذلك، فهو لكثرة الانشغال بالجوانب الأخرى؛ من استقبال الناس، والدعوة إلى الله، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك، لا يجد وقتاً للازدياد في الجانب التعبدي، فنجد – مثلاً- أن المساجد في العشر الأواخر من رمضان تزدحم بالمعتكفين، لكن نسبة طلاب العلم والدعاة والمصلحين منهم قليلة جداً، والحجة هي: الانشغال بغير ذلك من الأعمال.

فهل هم أكثر انشغالاً من المصطفى ﷺ؟ وهل يحملون مسؤولية أكثر من نبينا محمد ﷺ الذي كان يربي جيلاً، وينشئ أُمَّة ويبلغ رسالة؟

الجواب هو: لا بكل تأكيد، وبرغم ذلك فمنذ فُرض الصيام في السنة الثانية للهجرة، وحتى توفي النبي ﷺ ما ترك الاعتكاف إلا ثلاث مرات: مرة بسبب غزوة بدر التي كانت في السابع عشر من رمضان، ومرة في فتح مكة، والثالثة لما ضربت نساؤه أخبيتهن في المسجد فخشي أن يكون ذلك منهن للمفاخرة فقال: «آلبر تُرِدْنَ؟ فأمر بخبائه فقوض، وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال»[1]،

---

(١) البخاري ٢/ ٧١٥ (١٩٢٨)، مسلم ٢/ ٨٣٠ (١١٧٢) واللفظ له.

«فقضى الاعتكاف في هذه ولم يُعرف أقضاه في الأوليين أم لا»[1].

فعندما نرى النسبة العظمى من طلاب العلم والدعاة والمربين لا يحيون هذه السُّنة، التي لم يتركها ﷺ إلا كما تقدم، فهناك خلل ما، ينبغي تداركه.

لقد كان قيام الليل واجباً في حق أنبياء الله ﷻ، فلو كان لأحد عذر بسبب الانشغال بالواجبات، لعُذروا هم لكثرة مشاغلهم وجهادهم وأعباء إبلاغ رسالاتهم، لكن العكس هو الصحيح، فلكثرة جهادهم وثقل أعبائهم ولأهميتهم في التغيير، ولكي يكونوا مؤثرين فيمن حولهم، كان قيام الليل واجباً بالنسبة لهم.

إذاً، الأصل ألا تتعارض الأعمال، فلكل وقت عبادة لا ينبغي أن يُشتغل فيه بغيرها، فقراءة القرآن لها وقت، والصيام له وقت، والذكر له وقت، وللدعوة وقت، وللأمر بالمعروف وقت وهكذا، والسعيد من وُفِّق فضرب في كلِّ مرضاة لله بسهم وأخذ منها بنصيب.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٥/ ٢٩٧.

ثم إنه قد يحصل تعارض حقيقي، كمن يقوم بالحسبة في الأسواق- حيث انتشرت المنكرات، وهو يريد الاعتكاف، فإن أمكنه الاعتكاف في النهار والاحتساب بالليل أو العكس، فقد أمكنه التوفيق أو وجد من يقوم بالحسبة نيابة عنه فذاك، وإن لم يمكن التوفيق فالأولى أن يقوم بالحسبة ويترك الاعتكاف، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وقيامه بالحسبة أنفع، ولكن يبقى هذا استثناء من القاعدة، كما ترك النبي ﷺ الاعتكاف عام بدر وفتح مكة.

السبب الثالث – دعوى الفعل القاصر والمتعدي:

هناك بعض الأوهام المتعلقة بمفهوم العمل المتعدي والقاصر، والمقصود بالعمل المتعدي هو ما يتعدَّى نفعُه صاحبَه إلى غيره، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقضاء حوائج الناس، والنفقة؛ أما الفعل القاصر فهو ما اقتصر نفعه على صاحبه كقراءة القرآن والصلاة والصيام والذكر.

حتى إن بعضهم بسبب هذا الوهم يقول: ليت ابن تيمية اشتغل بالتأليف بدل جلوسه لذكر الله من بعد صلاة الفجر إلى الضحى، فإنه عمل قاصر. وهذا بلا شك خطأ محض وفهم قاصر، فهذه الجلسة ونظائرها من العبادات هي التي أعانته على الجهاد الحقيقي، بالسيف والسنان، والقلم واللسان، إلى أن لقي ربه عالماً عاملاً رحمه الله.

ولا شك أن الأصل في نفع الأعمال المسماة قاصرة يعود على صاحبها بالدرجة الأولى، ولكن هذا لا يعني بحال أن النفع لا يجاوزه إلى غيره فهذا خلاف الصواب نقلاً وعقلاً، أما نقلاً فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال]، فعلَّق الفلاح والغلبة على العدو بالثبات والذكر، فدلَّ أن نفع الذكر ليس قاصراً على صاحبه، بل يتعداه إلى باقي المؤمنين، والذي يقطع كل شك حول هذه النقطة قوله ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»[1]، فبيَّن —

(١) سنن النسائي ٦/ ٤٥ (٣١٧٨) وصححه الألباني.

عليه السلام- أن نصر هذه الأمة بدعوة الضعفاء وصلاتهم وإخلاصهم، بل عظَّم من شأنها فاستخدم أداة الحصر "إنما"، كأن النصر لا يكون إلا بذلك، فهل يصح بعد ذلك أن يُقال: إن الصلاة والإخلاص من الأعمال القاصرة بالمفهوم المتقدم؟ وقد فهمت ذلك الأمم قديماً فقال قوم شعيب عليه السلام لنبيهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾[هود:٨٧]، فعلموا أن الصلاة يتعدى نفعها إلى إصلاح العقيدة والمال، فأي نفع أعظم من ذلك، ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أما عقلاً فإن لهذه الأعمال المسماة بالقاصرة أثراً لا يُنكر على صاحبها، حيث تصقل شخصيته، وتصفي ذهنه، وتعطيه عوناً كبيراً على أداء واجبات الدعوة والتعليم وغيرها من الأفعال المتعدية، كما أنها تهذِّب أخلاقه، وتضبط تصرفاته، وتنظِّم حركاته وسكناته، فيكون داعية بفعله قبل كلامه، وهذا أدعى للتأثير في المحيط، وأرجى لقبول النصح منه والإرشاد.

إذاً هذه الأعمال التي يُقال إنها أعمال قاصرة على صاحبها، كالصلاة والاعتكاف والصيام والذكر، هي قاصرة من وجه، متعدية من وجه آخر، بل هي أساس في الدعوة إلى الله – جل وعلا –، في القيادة، وفي إصلاح المجتمع، وفي التربية، وفي التغيير المرجو؛ سواء على مستوى الفرد، أو المجتمع، أو الدولة، أو الأمة، وهذا الفهم هو المدخل الصحيـــــح لامتثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

السبب الرابع-البعد عن تدبر القرآن:

إن الواقع يشهد بأن كثيراً من الناس- وقد يكون بعضهم من حملة كتاب الله- يغفُلون عن اعتناء القرآن الكريم بالجانب التعبدي حتى إذا نُبِّه إليه أحدهم تنبَّه وكأنه يقرأ القرآن لأول المرة.

فمن تدبَّر القرآن الكريم وجد فيه اهتماماً بالغاً، وتركيزاً كبيراً على هذا الشأن العظيم الذي خلق لأجله الثقلان، وبياناً واضحاً لأثره على دعوات الإصلاح التي حمل لواءها الأنبياء والمرسلون، ولكون بداية الإصلاح إنما تأتي بتربية الله ﷻ أنبياءه

على هذا الشأن؛ كي يكون بمقدورهم تحمل أعباء الدعوة، كما سيأتي إن شاء الله.

السبب الخامس- الجهل بسير المصلحين:

وهو ما سنعرض لنماذج منه تبين التكامل في دعواتهم بين العمل المتعدي والقاصر، تبين أيضاً غلط دعوى التعارض بينهما، أو القول بعدم إمكان الجميع.

السبب السادس – اختلال ميزان التقييم:

فالناس يشيرون بالبَنان إلى الداعية وإلى المفكِّر، ويجعلونه المثل الذي يجب أن يُحتذى، بينما يغفلون عن أصحاب العبادات، ولا يكادون يقيمون لهم وزناً، فلا عجب بعد ذلك أن نجدهم يزهدون في الاستكثار من العبادات، لا لأن العباد الحق يراعي أعين الناس ونظرهم، لكن لأن التربية التي ينشأ فيها الفتى على عدم تعظيم هذا الجانب تؤثر في سلوكه المستقبلي.

إن للعالـــم فضلاً على العـــابد، وهذا أمر لا يمكن إنكاره، فقد قال ﷺ: «**وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر**

ليلة البدر على سائر الكواكب»[1]، ولكن العدل هو أن يُعطى كل ذي حق حقه، فنعلي من شأن العلم وأهله دون أن نقلل من شأن العبادة وأهلها، وكيف نقلل من شأنها وقد أثنى الله ﷻ في غير موضع من كتابه على المقبلين على عبادته، وأي دليل على أهميتها أكبر من ثنائه على من اصطفاهم بنبوته بقوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]. وأما تقديم من يسمون بالمفكرين المثقفين على العابدين القانتين فذلك خلل ظاهر.

وعندما يستقيم الميزان، وتصحح المفاهيم، وتُنزل العبادات منزلتها اللائقة بها، سنجد عودة من الناس للإقبال على هذا الجانب العظيم، وستعود سير العُبَّاد لتكون واقعاً ملموساً، لا مجرد سير لأقوام غابرين تزيَّن بها المجالس والمحافل فحسب.

السبب السابع – فاقد الشيء لا يعطيه:

إن من أنفع وسائل الدعوة، الدعوة بالقدوة والمثال، فيكون الداعية داعية بلسان حاله، قبل أن يكون داعية بلسان مقاله،

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٣٤١ (٣٦٤١) وصححه الألباني.

ونحن نسمع الدعاة والمصلحين والمربين والمسؤولين في الحلقات يدعون الناس لعبادة الله، والإكثار من الطاعات والنوافل، ويأتون بالآيات والأحاديث، ويشنفون الآذان بسير عباد الله الصالحين، ولكن عندما يجد الناس أن هذا الداعية مقصر فيما يدعو إليه، فإن تأثرهم به سيقل بلا شك، بل قد ينعدم بالكلية.

إن للداعية مع الناس حالات ثلاث: فإما أن يتقدمهم ويأخذ بأيديهم إلى المعالي، فهذا أكمل الدعاة وهو بذلك مقتف أثر النبي ﷺ، وإما أن يكون واقفاً في منتصف الطريق يدعو الناس كي يقدموا إليه، فإذا جاؤوه دلَّهم على نهايته، فهذا على خير إلا أن هناك خللاً في دعوته يُرجى أن يُجبر، وإما أن يكون والعياذ بالله كالجسر الذي يعبر عليه الناس إلى الجنة ثم يهوي في نار جهنم، وقد قال النبي ﷺ: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلانُ ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم**

بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

والكلام هنا عن الصنف الثاني من الدعاة، وهو صنف لا نشك في أن أصحابه من أهل الخير والصلاح، فهذه دعوة للتأمل والمراجعة لتصحيح العمل واستئنافه، فإنسان ينصح الناس بالمحافظة على صلاة الجماعة، ثم تفوته صلاة الجماعة مرات ومرات، فالناس سيقولونها، إما لفظاً وإما بقلوبهم: فأنت لماذا لا تصلي مع الجماعة؟ ولذلك قال الله -جل وعلا-: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة]، فعاب عليهم فعلهم هذا، وبين أنهم لو كانوا يعقلون ما فعلوه، وفي هذا تحذير لنا من فعلهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]، فلا بد أن يكون الإنسان عاملاً بما يقول، قال الشاعر:

يا أيُّها الرجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ

تَصفُ الدَّواءَ لِذي السِّقامِ وَذي الضَّنا ... كيما يَصحُّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ

وَنَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا ... أَبَداً وَأَنتَ مِنَ الرَّشادِ عَديمُ

---

(١) البخاري ٣/ ١١٩١ (٣٠٩٤) واللفظ، مسلم ٤/ ٢٢٩٠ (٢٩٨٩).

فابدأ بِنَفسكَ فانهَها عَن غَيِّها ... فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأَنتَ حَكيمُ

فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيُهتَدى ... بِالقَولِ منكَ وَينفَعُ التعليمُ[1]

السبب الثامن – الجهل بأن العبادة مما يستعان به:

فعدم إدراك أن هذه العبادات، سواء ما كان منها بالجَنان أو ما كان بالأركان، هي التي تُعين الإنسان على تحمُّل المشاق، والقيام بأعباء الدعوة والإصلاح، مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال في الآية قبلها ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]. وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى هذا الأمر لنبيه عليه السلام أفضل بيان فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]، فأوصاه سبحانه وتعالى أن يقابل استهزاءهم بما يدعوهم إليه من نبذ الشرك وتحقيق التوحيد،

---

(١) الأبيات للمتوكل الليثي، وهي من البحر الكامل.

بالتسبيح والصلاة والعبادة، وأن يداوم على هذه الحال إلى أن يلقى الله، وقد امتثل - بأبي هو وأمي- وصية ربه ﷻ خير امتثال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمر قال: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم»[1]، وبقي مداوماً على عبادة الله سبحانه حتى أتاه اليقين وهو يقول: «اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»[2].

وقد تمثل الأئمة الربانيون هذه المعاني، فها هو شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- لا يترك جلسة يجلسها لذكر الله بين الفجر والضحى أبداً، كما نقل عنه ابن القيم أنه قال: «هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي»[3].

---

(١) مسلم ٤/ ٢٠٩٢ (٢٧٣٠).

(٢) البخاري ٤/ ١٦١٤ (٤١٧٦)، مسلم (٤/ ١٨٩٣ (٢٤٤٤).

(٣) الوابل الصيب ١/ ٦٣.

فابن تيمية-رحمه الله- الذي لا يكاد ينصرف الذهن عند إطلاق لقب «شيخ الإسلام» إلا إليه- رغم أنها قيلت في حق أئمة غيره لا يقوى على تحمل أعباء الأعمال العظيمة التي كان يقوم بها في كلِّ الفروع والفنون، من جهاد وتأليف، ونشر علم وعبادة، إلا بالاستعانة بهذه الجلسة وما هو أولى منها العبادات التي كان مواظباً عليها، فلو فقهنا ما فقهوا لعملنا بما عملوا.

الوقفة الثانية

مفهوم العبادة الشامل

إن الله ﷻ لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا هملاً، بل خلقنا لغاية عظيمة ولمهمة جليلة، وأرسل إلينا رسله ليعرِّفونا بهذه المهمة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وأمر رسوله عليه السلام أن يبلغنا رسالته، فأدَّى إلينا قول ربنا جلَّ في علاه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]، فهذه هي الوظيفة الرئيسة المنوطة بالمكلَّفين من جن وإنس؛ عبادة الله ﷻ وحده.

إن من أهم واجبات النبي ﷺ، تعبيد الخلق لبارئهم كي يحققوا الغاية التي وُجدوا من أجلها، فينبغي لورثته من العلماء، والدعاة والمصلحين، أن يقتفوا أثره عليه السلام، فيجعلوا همهم الأكبر دعوة الناس لعبادة الله سبحانه وتعالى، والتقرب إليه بما يحب من فروض العبادات ونوافلها، ولكن كما يقال: كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟!

فيجب على هؤلاء أن يتمثلوا هم أولاً هذه المعاني العظيمة فيضربوا بأسهم في أنواع العبادات، فإن هم فعلوا ذلك أيَّدهم الله وأعانهم وبارك في دعوتهم، كما جاء في الحديث القدسي: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتهُ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه».. [1].

والداعية بلا شك يحتاج لمثل هذه المعونة من الله ﷻ لأداء واجب الدعوة أولاً، ولجني ثمراتها ثانياً، فإن هو تقرب إلى الله ﷻ بما في الحديث، كان هذا أرجى لحصول مطلوبه، ولإجابة دعائه باستجابة الناس له.

وعندما نتكلم عن العبادة وأثرها في تهيئة المصلحين للقيام بواجب الإصلاح فإننا نتكلم عن العبادة بمفهومها الشامل الواسع. نتكلم عن العبادات الظاهرة والعبادات الباطنة، ولا نتكلم عن المفهوم القاصر الذي قد يحصرها في مظاهر معينة هي

---

(١) البخاري ٥/ ٢٣٨٤ (٦١٣٧).

الأسبق إلى الأذهان عند الكلام عن العبادة؛ كالصلاة، والصيام، والذكر، كما أننا نتكلم عن العبادة بأنواعها الثلاثة: القلبية، والبدنية، والمالية، فمن الأعمال ما يكون عبادة قلبية؛ كالحب، والخوف، والرجاء، والتفكر، والإخلاص، ومنها ما يكون عبادة بدنية؛ كالذكر باللسان، والصلاة، والصوم، ومنها ما يكون عبادة مالية؛ كالزكاة، والصدقة، وبناء المساجد، ومن الأعمال ما تجتمع فيه جميع هذه العبادات، كالحج والجهاد؛ فالإنسان حين يطوف أو يرمي الجمرات أو يقف بعرفات يستحضر بقلبه المعاني السامية لما يقوم به، وما لم يعرف معناه يستحضر بقلبه أنه إنما يؤديه طاعة لله، واقتداء بنبيه عليه الصلاة والسلام، كما قال عمر رضي الله عنه عندما قَبَّلَ الحجر الأسود: «والله إني لأقبلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبلتُك»[1]، ولا بُدَّ له قبل كل ذلك أن يخلص النية التي هي شرط لصحة كلِّ عمل، فهذا جانب الحج القلبي، وأما الجانب المادي فهو: الزاد والراحلة، وأما الجانب البدني فغير

---

(١) البخاري ٢/ ٥٧٩ (١٥٢٠)، مسلم ٢/ ٩٢٥ (١٢٧٠) واللفظ له.

خافٍ، وهو كافة أعمال الحج من إحرام، وطواف، ورمي للجمرات، ووقوف بعرفة، وغير ذلك، فهو من أشق الأعمال البدنية ولا يفوقه فيها إلا الجهاد، ولذلك قال النبي ﷺ لعائشة عندما سألته: «يا رسول الله على النساء جهاد؟ قال: نعم. عليهن جهاد لا قتال فيه؛ الحج والعمرة»[1].

وكذلك الجهاد عبادة جامعة، فإن المجاهد ينفق من ماله ليتجهز للجهاد، ثم هو يجاهد بنفسه ويقدمها رخيصة في سبيل الله، وقبل كلِّ ذلك فإنَّ قلبه معلق ببارئه، يرجو رحمته وقبول عمله.

إن الواقع يشهد أن هناك تقصيراً كبيراً في جانب العبادات الظاهرة التي تسبق إلى الأذهان عند الكلام عن العبادة، فكيف بالعبادات الباطنة!

فإذا ارتقينا قليلاً إلى من يحافظ على العبادات الظاهرة، فقد نجد الرجل يقف في الصف الأول خلف الإمام ومع ذلك فقلبه غير حاضر، فلا تدبر ولا تأثر، كما قال الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ٩٦٨ (٢٩٠١) وصححه الألباني.

مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤]، فكم من مرة سمعنا هذه الآية ولم نتذكر أو نتأثر! بينما ربنا سبحانه يقول -ومن أصدق من الله قيلاً-:﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] فصارت قلوبنا أقسى من الجبال، والله المستعان.

إذاً كما أنه لدينا نقص في العبادات البدنية، فكذلك لدينا نقص في العبادات القلبية، بينما نبينا وأسوتنا ﷺ يجمع بين العبادة القلبية والبدنية.

لقد كان دخول مكة بعد أن أخرجته قريش منها قبل سنوات من أعظم ما مرَّ به ﷺ، ثم إنه لما دخلها فاتحاً كأعظم ما يكون الفتح، لم يدخلها رافعاً رأسه كالجبابرة، بل دخلَها -بأبي هو وأمي- خافضاً رأسه حتى كادت لحيته أن تمس واسطة رحله كما ذكر أهل السِّيَـر، ففي اللحظة التي يدخل فيها مكة لا إعجاب ولا فخر ولا كبر، وحاشاه من ذلك، بل قمة التواضع لله الذي أيَّده بهذا النصر.

وبهذا يكون النبي ﷺ قد جمع عند فتح مكة بين العبادة الظاهرة، من الجهاد وتسيير الجيوش وإعطاء الأمان للبعض، والأمر بقتل البعض ممن أذى الله ورسوله، والعبادة الباطنة من الخضوع لله – جلّ وعلا- والتذلل والتواضع له، والتبرؤ من كلِّ حول وقوة إلا من حول الله وقوته، ثم ينتقل مباشرة لعبادة أخرى حيث: «دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يُعيد»[1]، ثم ينتقل عليه السلام لعبادة أخرى كما قالت أم هانئ: «فإنها ذكرت: أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، ثم صلَّى ثماني ركعات، قالت: لم أره صلَّى صلاة أخفَّ منها، غير أنه يتم الركوع والسجود»[2].

فالمنهج القويم هو ما كان عليه سيد المرسلين، وهو الجمع بين عمل القلب والبدن، وهذا دليل العلم الصحيح الذي ينفع صاحبه كما قال ﷻ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ

---

(١) البخاري ٤/ ١٥٦١ (٤٠٣٦).

(٢) البخاري ٤/ ١٥٦٢ (٤٠٤١).

﴿ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر]، فهؤلاء القانتون الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم هم العلماء حقاً، وهم أولو الألباب.

فتحقيق أنواع العبادة المختلفة، هو الذي يصل بالعبد إلى درجة عالية من الإيمان، والإيمان عند أهل السنة والجماعة تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، فهو جامع للعبادات الظاهرة والباطنة، وجامع للعبادات القلبية والبدنية والمالية، وتحقيق هذا الإيمان والمحافظة عليه هو الذي يفتح للعبد أبواب الخير العاجل والآجل كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]، وهو الذي يفتح قلوب الخلق للداعية، فيقبلون كلامه ويُقبلون عليه بإذن الله.

وههنا نقطة مهمة تبين لنا أثر العبادات القلبية التي لا يطلع عليها إلا الله، فيجازي بها بالإحسان إحساناً كما قال عزَّ من قائل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]، ففي

حديث أصحاب الغار قال النبي ﷺ: «بينما ثلاثة نفر يتمشون، أخذهم المطر، فأَوَوْا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمال عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرُجُها عنكم. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحتُ عليهم حَلَبتُ، فبدأت بوالديَّ فسقيتهما قبل بَنِيَّ، وإنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما،أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغَوْن عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله منه فرجة فرأوا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنه كان لي ابنة عم أحببتها كأشدِّ ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها فلما وقعت بين

رجليها قالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج لنا منها فَرْجَةً، فَفَرَجَ لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي، فَفَرَجَ الله ما بقي»[1]، فهؤلاء النفر الثلاثة لم يتوسلوا إلى الله ﷻ بأعمالهم الظاهرة فحسب – وهي أعمال صالحة بلا ريب- بل توسلوا بعمل القلب الباعث على هذه الأعمال، فالأول كره أن يسقي أولاده قبل أبويه فيفضلهم عليهما، فهذا بر باطن تجلَّى في الظاهر بانتظار استيقاظهما، والثاني حجزه خوفه من الله عن مقارفة ما حرَّمه الله، والثالث دفعته مراقبته لله وحرصه على

(١) البخاري ٥/ ٢٢٢٨ (٥٦٢٩)، مسلم ٤/ ٢٠٩٩ (٢٧٤٣) واللفظ له.

حقوق الناس إلى فعل ما فعل، ثم هم في كل لك يقولون: «اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك»، وهذا هو التوسل بالإخلاص، وهذه هي الحال في كثير من العبادات، حيث يتكامل عمل القلب مع عمل الجوارح، فلا بد من مراعاة ذلك.

بل إن القبول قد يتعلَّق بعمل القلب وإن تخلفت الجوارح، بينما يُرد عمل الجوارح لتخلف عمل القلب، فإذا نظرنا – مثلاً – إلى البر بالوالدين، وجدنا من الناس من لا يبر والديه بالأعمال الظاهرة كغيره من إخوته، ومع ذلك يجد منهما تقديراً لا يبلغه غيره، أو يفضلانه على غيره من إخوته ممن يعمل معهما ما لا يبلغه بعمله، كهذا الشاب الذي يدفع أمه على العربة في العمرة ومع ذلك تقول له: ليتك مثل أخيك فلان، فيقول لها: أهذا جزائي وهو لم يعمل معك بمثل عملي؟ فجواب هذا الشاب هو مفتاح المسألة، فكأنه يقوم بما يقوم به بنية مشوبة غير خالصة، أو كأنه يقوم به وهو يرى لنفسه فضلاً على أمه، وكأن الله علم من قلب أخيه بخلاف ما في قلبه فرقَّق له قلب أمه، مصداقاً لقوله

تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء].

فنحن هنا أمام عمل صالح، وهو البر بالأبوين أو أحدهما، لكنه وإن كان كاملاً في الجانب الظاهر إلا أن هناك خللاً في جانبه الباطن، فالبر بران، بِرٌّ حسي ظاهر وهو مطلوب محمود، وبِرٌّ معنوي باطن وهو المقصود.

فكثير من مظاهر البر، لا تدل على البر الحقيقي الذي في القلب مكانه، ولا يعلم به إلا الله، فقد يكون المرء باراً بوالديه في الظاهر خوفاً منهما، أو خوفاً من كلام الناس، وقلبه ممتلئ بالعقوق، فليس هذا هو البر الذي يكون قربة لله -جل وعلا- فيستجيب لصاحبه إن هو دعاه به، كما استجاب لصاحب الغار.

وقد يكون الأمر بخلاف ذلك، فيكون الابن باراً بأبويه ظاهراً وباطناً، ومع ذلك يفضل الوالدان غيره عليه لأمر لا علاقة له به، فهنا تكن الآية الكريمة مواساة وعزاء للذين يعلم الله صدقهم، وحرصهم على بِرِّهم بآبائهم وأمهاتهم، فإذا علم الله ذلك منهم، وحصل من الآباء والأمهات جفاء فالأمر كما

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء].

ومن عجائب ما يروى في أيامنا- من قصص البر بالآباء - مصداقاً لقوله عليه السلام: «**مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُه**»(١)، ما تنازع فيه أخ وأخته عند القاضي، كل منهما يريد أن تبقى أمهما المقعدة عنده، فالبنت تقول: يا شيخ، من يحملها لدورة المياه؟ فإنه لا يجوز له، فإما أن تحملها زوجه أو الخادمة، وأنا ابنتها وأحقّ بها، والرجل يقول: لا يا شيخ، أنا لا أريد أن تكون عند زوج أختي بل أريدها عندي، فحكم القاضي بأن تكون عند البنت، فغضب الابن وقال: اتق الله يا شيخ، سأخاصمك أمام الله -جل وعلا- أتحرمني من أمي؟

وقصة أخرى لرجل يعيش في قرية تبعد عن الرياض مائة كيلو متر وقد ماتت زوجه، وهو يرفض أن ينتقل إلى الرياض ليعيش مع أبنائه، فهم يزورونه كل خميس ويبقى بقية الأسبوع

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٥٢ (٢٨٦٩)، وقال الألباني: حسن صحيح.

وحيداً، فإن مات خلال الأسبوع لن يشعر به أحد، فيسأل ابنه هل علينا من شيء؟!

فهذا سؤال من يبر بأبيه ظاهراً، لكن البر الباطن لا يستدعي مثل هذا السؤال، بل سيقود صاحبه مباشرة للانتقال للعيش بجانب أبيه، وهو ما قد كان منه بارك الله فيه.

إن العبـــادة بجوانبها الثلاثة: القلبية، والبدنية، والمالية، هي التي تضيء للإنسان حياته وتجعلها هنية رضية، كما قـــال تعـــالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، وهي التي تُؤنسه في قبره كما في حديث البراء الطويل وفيه أن العبد المؤمن: «يُفسح له في قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أَبشِر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟. فوجهك الوجه الحسن يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح»[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٧ (١٨٥٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٢١٩.

والعبادة هي التي تهديه إلى الجنة بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾ [يونس].

الوقفة الثالثة

أهميـــة إصلاح القلـب

قد بينا فيما سبق أن العبادات تنقسم إلى قلبية وبدنية ومالية وأن من أهم أسباب ضعف التعبد هو ضعف الإيمان القلبي، ونفرد أمر القلب هنا بشيء من التفصيل لعظيم أثره وخطير دوره، ولأن العبادات البدنية والمالية لا تصدر إلا عن صاحب قلب صالح، ولأنها إن خرجت من صاحب قلب فاسد لم تنفع صاحبها.

إننا لو رأينا من ابتُلي بالأمراض والعاهات الظاهرة، كمن أصيب بالشلل أو ذهب بعض بدنه، لرحمناه وتأثرنا لحاله، مع أنه قد ينال بصبره على هذا الابتلاء أعلى الدرجات، بينما قد نرى من أحوال الناس ما يدل على فساد قلوبهم ومرضها فلا نتأثر لمثل ذلك، رغم أن أمراض القلوب أشد. وكذلك فإننا جميعاً نهتم بملابسنا، ولا يكاد يوجد من يخرج من بيته إلى مسجده أو عمله إلا وقد تفقد ثيابه وأماط عنها الأذى مهما دَقَّ، حتى إنه ليجزع

إذا وجد عليها شيئاً يسيراً لم يتنبه له، لكننا لا نكاد نجد مثل هذا الحرص على سلامة القلوب مما يلوثها من الغِلِّ أو الحقد أو الحسد أو العداوة والبغضاء، برغم أن ضرر هذه لا يكاد يقارن بما على الثوب من الأذى، وقد جاء في الحديث: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنْظِروا هذين حتى يصطلحا»[1].

فهذا يدل على خلل في المفاهيم، مما يعني أننا بحاجة لتصحيح الميزان الذي نزن به الأمور، بالعودة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لنعود على قلوبنا بالتهذيب والإصلاح لما فيه خيرها في الدنيا والآخرة[2].

هذا وقد بين ربنا ﷻ ما ينفع الناس يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]،

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٨٧ (٢٥٦٥).

(٢) ينظر كتاب الأخ الشيخ سيد ساداتي (القلب في القرآن الكريم).

فجواز المرور إلى الجنة هو القلب السليم، فلا ينفع مال، ولا بنون، ولا ملك، ولا ينفع المرء أن يأتي بكنوز الدنيا ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران:٩١]، لا ينفع ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[الشعراء]، ولذلك أثنى الله ﷻ على إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات]، وقد أخبرنا الله ﷻ من مواقف إبراهيم عليه السلام الدالة على سلامة قلبه الشيء الكثير، ومن أعظم ذلك ما ورد في قصته مع ابنه إسماعيل عليهما السلام في سورة الصافات، حيث إنه عليه السلام دعا الله ﷻ أن يرزقه الولد فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصافات]، فجاءته البشرى من الله ﷻ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات]، فجاءه أول أولاده إسماعيل ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة كما في كتب أهل الكتاب[1]، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[الصافات:١٠٢]، فبعد كلِّ هذا الانتظار للولد، ولما بلغ معه السعي، وصار أحسن ما يكون الولد، أُمر أن

(١) ينظر تفسير الآية عند ابن كثير.

يذبحه، وأن يتولَّى ذلك بيد نفسه لا بيد غيره، وبرغم ذلك استسلم إبراهيم عليه السلام لأمر الله، واستسلم معه ابنه الحليم ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾ أي: استسلم هو وإسماعيل عليهما السلام؛ أما إبراهيم فبتصديقه الرؤيا، وبما أخبر الله عنه في قوله: ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ ، وأما إسماعيل فبانقياده للذبح وبقوله من قبل ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ ، فلما استسلما لأمر الله، وأظهر الله سلامة قلبيهما بعد هذا الاختبار والامتحان الكبير، لم يعد هناك ما يدعو الأب لذبح وليده إذ قد ذبح كلَّ تعلُّقٍ لقلبه بغير الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ١٠٧ ﴾ [الصافات].

وكما ابتَلى سبحانه وتعالى خليله إبراهيم ليظهر ما في قلبه، فإنه سبحانه وتعالى يبتلينا ويختبرنا ليظهر ما في قلوبنا، فإن كان الله عز وجل قد أعطى قلوبنا حصانة في هذه الدنيا فلا يتدخل فيها أحد، ولا يعلم ما فيها إلا هو، فإن الأمر يختلف يوم القيامة: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ ﴾ [الطارق] فهناك تظهر السرائر، فيتميز من كان يعمل الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله ممن كان يرائي بها،

ويتميز من كان قلبه يمتلئ بالحب والشفقة على إخوانه ممن كان قلبه يتفطَّر غيظاً وحسداً وحقداً عليهم، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [العاديات]، فهذه ساعة الحقيقة، ولئن خَفي ما في قلوبنا على الناس، فإنه لا يخفى على الله جل وعلا فقد يجتمع الناس في مسجد، أو في مجتمع، أو في مكان؛ أشكالهم متشابهة، ولباسهم متقارب، لكن الله أعلم بما في قلوبهم، فقد يكون في قلب الواحد منهم من الإيمان والصدق والإخلاص ما لو وزن بإيمان الآلاف ممن حوله لوزنهم، وقد يوجد بينهم من قلبه خَواء من الإيمان والعياذ بالله، ولا يعلم به إلا الله، فهناك صاحب القلب النقي الطاهر، وهناك صاحب القلب المتدنس المليء بالأمراض.

وقد بين النبي ﷺ هذه الحقيقة لأمته، وأن الله ﷻ إنما ينظر إلى ما في القلوب فقال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بأصابعه إلى صدره»[1]،

---

(١) مسلم ٤/١٩٨٦ (٢٥٦٤).

فإن كان القلب سليماً انتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة، وإن كان فاسداً خسر الدنيا والآخرة ولم تنفعه أعماله، ولذلك يقول عليه السلام: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب**»[1].

ومما يزيد أهمية العناية بهذا القلب وضوحاً أن أول مبدأ هذا الدين العظيم أن نزل كتابه العظيم على قلب عظيم كما قال تعالى: ﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة:٩٧]، وقال كذلك: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء الآيتان:١٩٣-١٩٤]، فما قال على عينك، ولا على سمعك، بل قال على قلبك؛ ومنتهاه أن يخاطب من كان له قلب كما قال عز من قائل: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق]، أي: استمع الوعظ وهو حاضر القلب[2].

لقد جاء أطول قسم في القرآن في سورة الشمس حيث أقسم الله ﷻ أحد عشر قَسَماً فقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ

---

(١) البخاري ١/ ٢٨ (٥٢)، مسلم ٣/ ١٢١٩ (١٥٩٩).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير والجلالين وغيرهما.

إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس]، فلو أقسم العظيم سبحانه على شيء قسماً واحداً لأيقنَّا أنه أمر عظيم فكيف بأحد عشر قسماً؟ ثم يكون جواب القسم: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس] ، وأجل التزكية عمل القلب، وهي طهارته ونماؤه، فإذا حرص المرء على طهارة قلبه، فزكَّى نفسه من الحسد، والغِلِّ، والحقد، وبثَّ العفو على الناس كما يبث الطيب في المناسبات والأعياد، ثم أقبل على عباداته من صلاة وصيام وزكاة بمثل هذه النفس الزكية، كان أقرب إلى أن يزكي الله له أعماله وينميِّها، ويحفظ جوارحه عن محارمه، ويثبتها على طاعته كي يفوز بالفلاح كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعلى].

ومصداق ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد

تعلَّق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلتَ. قال: نعم. قال أنس: وكان عبدالله يحدِّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارَّ وتقلَّب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبدالله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مِرَارٍ: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مِرَارٍ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلمَّا وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد

في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقالَ عبدالله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق[1].

فيجب إذاً العناية بأمر القلب، لأنه أساس الخشوع والإنابة في العبادات، وبهما تُنال أعلى الدرجات، وهذه كانت سيرة الأنبياء والمرسلين، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث مدحهم ربنا ﷻ فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، فلهذا نجد عناية العلماء الربانيين بهذا الجانب، حيث يُراعون في فتاواهم حال المستفتي، وينظرون بعين البصيرة إلى الحكمة من النصوص، ولا يقفون عند ظواهرها فحسب.

جاء رجل إلى الحسن البصري فقال له: يا إمام هل أصلي النافلة في البيت، أو في المسجد؟ فقال: صلِّ في الموضع الذي ترى فيه عينك أدمع، وقلبك أرق وأخشع، وكذلك جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال: يا إمام هل الأفضل أن أكون قريباً من الإمام أو بعيداً؟ فقال: أين تجد قلبك. أي: صلِّ حيث تجده. وقد يقول

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/١٦٦ (١٢٧٢٠) قال شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين.

قائل: إن هذا مخالف لما علم من أفضلية صلاة النافلة في البيت وأفضلية القرب من الإمام، فيقال: نعم، هذا هو الأصل، ولكن قد ذكر شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- قاعدة فقهية قيمة فقال: «الفضل المتعلِّق بذات العبادة أولى بالمراعاة من المتعلِّق بزمن العبادة وبمكانِها»[1]، فأفضل أحوال الصلاة ما كان فيه تحقيق الخشوع الذي هو مفتاح الفلاح كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، فلهذا كان -رحمه الله- يقول: إن الذي يصلي في الحرم في الدور الأعلى بعيداً عن الطائفين، وبعيداً عن مرور النساء، بحيث يكون أخشع لقلبه وأهدأ لنفسه، فإنه يعود على ذات الصلاة بالخشوع، بينما إن حقق أفضلية المكان وصلَّى في الصف الأول قريباً من الإمام فقد حقق الأفضل في الجملة، ولكن قد لا يخشع قلبه، فيكون قد كسب بعض الحسنات بالقرب من الإمام، وفقد أجراً كثيراً بتضييع ما يتعلَّق بالخشوع وهو روح الصلاة.

---

(١) في مواضع من الشرح الممتع على زاد المستقنع انظر مثلاً باب صلاة الجماعة ٤/ ١٥٣.

وليس هذا مختصاً بالصلاة وحدها، فالعبادات كلُّها لا بد فيها من حضور القلب، ولهذا نحتاج إلى العناية بقلوبنا وأعمالها، وهو جانب غَفَلَ عنه كثير من الناس، وتساهلوا فيه على حساب عمل الجوارح، وهو على أهميته لا يقارن أبداً بعمل القلب، فإن الرجل قد يصفُّ بجانب الرجل في الصلاة، وما بين صلاة هذا وصلاة هذا كما بين المشرق والمغرب أو كما بين السماء والأرض، فخشوع القلب وحضوره هو ميزان التفاوت بين الناس في عباداتهم وأعمالهم.

ثم إن المرء لو أخطأ في عمل الجوارح، في صلاته أو حجِّه أو غير ذلك، سيجد من ينبهه إلى خطئه، وعمل القلب لا يعلم به إلا الله -جل وعلا- فلن يجد المرء من يقدر على تنبيهه؟

بل لا يجوز لأحد أن يتدخل في قلب أحد، فيحكم على ما فيه من خلل أظهر خلافه، بدليل حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ من جهينةَ، فأدركت رجلاً فقال: لا إله آلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا

إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[1]، أي: كي لا يكون قتل هذا الرجل، فبرغم أن القرائن الظاهرة تدل على ما قاله أسامة كما في رواية لمسلمٍ حيث علَّل قتله بقوله: «يا رسول الله! أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً -وسمَّى له نفراً- وإني حملت عليه فلمَّا رأى السيف قال لا إله إلا الله»[2]، لكن هذا ليس لنا، فما يدرينا أن يكون الرجل قالها صادقاً!

إن أقصى ما يمكن للمرء إن وجد من أخيه شيئاً -بقرينة أو دليل- كعُجْبٍ، أو حَسَدٍ، أو غفلة، أو قلة خشوع، أو ما أشبه من أمراض القلوب، أن ينبهه وينصحه، ولكن ليس له أن يصدر الأحكام، لأن حقيقة ما في القلوب لا يعلمها إلا الله.

إنَّ لكل إنسان ظاهراً وباطناً، ولا يؤمن المرء حقاً حتى يستسلم ظاهره وباطنه لله ﷻ فالمؤمن هو الذي يُصدِّق بقلبه،

---

(١) البخاري ٤/ ١٥٥٥ (٤٠٢١)، مسلم ١/ ٩٦ (٩٦) واللفظ له.

(٢) مسلم ١/ ٩٧ (٩٧).

ويعمل بجوارحه، ولذلك يقال: «الإيمان: تصديق القلب، وعمل الجوارح بما فيها اللسان»، وهذا هو الإيمان عند أهل السنة والجماعة، أما قَصْرُ الإيمان على تصديق القلب، فهذا إيمان المرجئة وهم فرقة خارجة عن أهل السنة والجماعة، وأما قَصْرُ الإيمان على أعمال الجوارح فهذا إيمان المنافقين وهم في الدَّرك الأسفل من النار والعياذ بالله.

الوقفة الرابعة:

من أعمال القلب المنسية

إن الناظر لحال أمة الإسلام اليوم، يكاد قلبه ينفطر لما يجده من شحناء وبغضاء، بين الرجل وإخوانه، والمرأة وأخواتها، والجار وجيرانه، والموظف وزملائه، فأينما تلفتنا نجد الخلاف والشقاق وفساد ذات البَيْنِ يضرب بأطنابه في مجتمعاتنا، وربنا – جل وعلا-قد بيَّن لنا عواقب مثل ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [الأنفال من الآية:٤٦]. كما حذَّرنا نبينا ﷺ من عواقبه فقال كما عند الترمذي: «**فساد ذات البين هي الحالقة**»، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح ويُروى عن النبي ﷺ «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**» [1]، وسبب الكثير من هذا الشقاق وفساد ذات البين إنما هو غياب الصَّفح والعفو، وهو عمل جليل من أعمال القلوب غَفَلَ عنه الكثير من المسلمين إلا من رحم الله.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٣ (٢٥٠٩)، وصححه الألباني.

إن من يريد أن يكون كلُّ الناس بلا أخطاء، فلا يقبل أعذارهم ولا يعفو عن إساءاتهم يطلب المحال، كما قيل:

من ذا الذي ما ساء قطُّ ومـــــن له الحسنى فقطْ [1]

ولأن كلَّ بني آدم خطَّاء، وأحوج ما يحتاج إليه العبد الخاطئ هو عفو ربِّه عنه وصفحه عن إساءاته وغدراته، فقد علَّم النبي ﷺ أُمَّنا عائشة رضي الله عنها أن تسأل الله العفو في أعظم ليلة في السنة كما في الحديث حيث قالت: «يا رسول الله أرأيت إن علمت أيَّ ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي اللهم إنك عفو كريم تحبُّ العفو فاعف عني» [2]، فمن علم ذلك من حال نفسه وعلم مقدار احتياجه لعفو ربه كان حرياً به أن يعفو عن خلقه، وكيف لا يعفو وربنا ﷻ يقول: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٧]، أم كيف لا يعفو وربنا العفو الكريم يقول: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور:٢٢].

---

(١) البيت للشيخ عبدالغني النابلسي، من بحر مجزوء الكامل .

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٥٣٤ (٣٥١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

فكأن من شروط مغفرة الذنوب أن يعفو المرء ويصفح عن إخوانه الذين آذوه، وكأنه إن لم يفعل فإنه لا يُغفر له، أفلا يخشى الإنسان أن يسأل الله ﷻ أن يعفو عنه ويغفر له، فترد دعوته لأنه لم يستجب لأمر الله بالعفو والصَّفح عمَّن ظلمه؟

إن سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور]، يقطع حجة كل من يستنكف ويستكبر عن العفو والصفح عمن ظلمه من إخوانه المسلمين، يقول ابن كثير-رحمه الله-: «نزلت في الصِّدِيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال وقد كان ممن خاض في حديث الإفك فلما أنزل الله براءةَ أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحدُّ على مَن أُقيم عليه، شَرَع تبارك وتعالى، وله الفضلُ والمنة، يُعَطِّفُ الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد

وَلَق وَلْقَة[1] تاب الله عليه منها، وضُرب الحدَّ عليها. وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلمَّا نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا- أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قد قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته»[2].

فمَن مِنْ الذين يُعرِضون عن العفو عمن ظلمهم وقع له ما وقع للصديق؟ لقد اتهمت ابنته ظلماً بأقبح ما تتهم به المرأة العفيفة، وهذا من أشد الأمور على النفوس الكريمة الأبية كنفس أبي بكر، رضي الله عنه، فكيف إذا كانت هذه البنت هي الطاهرة المطهرة زوج رسول رب العالمين التي أنزل الله براءتها من فوق

---

(١) الولق: الكذب، ينظر لسان العرب ١٠/ ٣٨٣ مادة (ولق).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٨.

سبع سماوات، ثم كيف إذا كان فيمن رماها بالإفك قريب الصِّديق الذي لا عائل له سواه؟ الأمر عندها كما قيل:

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً
عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ [1]

فهل وقع لأحد مثل ما وقع للصديق مع مسطح رضي الله عنهما؟ وبرغم ذلك نجد كثيراً من الناس غير مهيَّأ للعفو والصفح، وقد يقول: "عفوت" بلسانه لكن قلبه لم يعفُ، ولسان حاله يقول إنه لم يعف، لكن من أراد الآخرة وأراد مغفرة الله ﷻ لا بد أن يعفوَ ويصفحَ، بقلبه أولاً وبلسانه ثانياً وبأفعاله ثالثاً، فمن الناس من يقول: قد عفوتُ عن فلان ثم هو لا يكاد يجلس مجلساً إلا ويقول قد فعل معي وفعل لكنني عفوت عنه! ومنهم من يقول: قد عفوت عن فلان ولكن لا يجالسني في مجلس ولا يكلمني ولا أكلمه، فأيُّ عفوٍ هذا؟

بل ينبغي أن يتأسَّى من يريد العفو بأبي بكر رضي الله عنه فيرجع إلى سابق عهده مع أخيه، كأن شيئاً لم يكن، مع صفاء القلب وكفِّ اللسان.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، وهو من البحر الطويل.

إننا نحتاج إلى الصَّفح عن أنفسنا، وعن زوجاتنا، وعن إخواننا وجيراننا، وهكذا الأقرب فالأقرب حتى يشمل العفو عمومَ المسلمين، فالتقصير حاصل من الجميع ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فمن عفا فليبشر بمغفرة الله، وليبشر بالأجر العظيم منه سبحانه وتعالى.

وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما - وهما أفضل هذه الأمة - وقع منهما ما وقع عند النبي ﷺ: «حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر... فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. قال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك»[1]، ولكن ما هي إلا لحظات وترجع الأمور إلى مجاريها.

وقد وقع بين الحسن والحسين- وهما سيدا شباب أهل الجنة- ما يقع أحياناً بين الأخوين، فجاء الحسن-وهو الأكبر- بعد مدة إلى الحسين مصالحاً، فطرق عليه الباب وقال: قد صفحتُ عما كان بيننا فاصفح، فقال الحسين: وأنا قد صفحتُ من قبل، وما منعني أن آتيك أولاً إلا لأنك أكبر مني فما أردتُ أن

---

(١) البخاري ٤/ ١٨٣٣ (٤٥٦٤).

أسبقك إلى الفضل، وقد قال جَدِّي ﷺ: «**وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[1].

فما حصل من هؤلاء الأفاضل يحصل مثله وأكثر منا جميعاً لأننا بشر، ثم لبشريتنا قد يقع الغيظ، وربنا ﷻ لم يقل إن المتقين لا يقع منهم الغيظ والغضب بل قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران]، فما قال: الذين لا يغضبون، لأن الإنسان قد لا يملك نفسه من الغضب أحياناً، لكنه قال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران]، فيكظمون الغيظ أولاً، ويعفون عن الناس ثانياً، ثم يحسنون ثالثاً.

وقد ذكر الغزالي – رحمه الله- قصة عجيبة في ذلك عن ميمون ابن مهران-رحمه الله- حيث جاءه ضيف، فاستعجل على جاريته بالعَشاء، فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون؛ فقال: يا جارية احرقتني،

---

(١) البخاري ٥/ ٢٢٥٦ (٢٧٢٧)، مسلم ٤/ ١٩٨٤ (٢٥٦٠).

قالت: يا معلمَ الخير ومؤدِّبَ الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى. قال: وما قال الله تعالى؟ قالت: قال: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾. قال: قد كظمت غيظي. قالت: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ . قال: قد عفوت عنك. قالت: زد، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. قال: أنت حرة لوجه الله تعالى [1].

فهذا المقام إنما هو لمن استجاب لله ورسوله، إنه مقام من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وإلا فبعض الناس ينساق وراء أهوائه وحظوظ نفسه، وينقاد لشيطانه، فيمتنع عن الصَّفح والعفو بحجة أن صاحبه هو الذي بدأ وهو الذي أساء، سبحان الله! وهل كنت تندب إلى العفو إذا كنت أنت المسيء؟! وفيما سبق من آيات وأحاديث ونماذج عملية ما يكفي من أراد الله به خيراً كي ينتصر على هواه وشيطانه.

وقد وقع من أحد الأفاضل في هذا الزمان خبر هو مثال عملي على ما نقول، حيث سمع مني كلاماً كثيراً عن العفو والصَّفح، فلحق بي بعد المحاضرة وقال: هل ما ذكرته عن العفو

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٠.

والصفح يسري كذلك على القتل العمد؟ فقلت: نعم، وكلَّما كان الأذى أعظم كان أجر العفو أعظم. قال: ولكن القِتلة كانت شرسة وفيها تمثيل بالقتيل-وهذا يزعج أهله ويؤلمهم-. فقلت له: إذاً يكون العفو أعظم لأجرك. فما خرج من المسجد إلا وقد عفا عن القاتل، وهذا أمر قد يكون عسيراً على النفس، ولكن «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن سهلاً إذا شئت»[1]، وهذا هو الظن بأهل الخير والصلاح، وإلا كان الكلام حجة علينا لا لنا.

إن أخذ المذنب بذنبه عدل وحق كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[الشورى:٤٠]، لكنه سبحانه وتعالى أرشد في تتمة الآية إلى ما هو خيـــر من ذلك فقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى] فالذي يوصف بالعزيمة هو الذي يعفو ويصفح، أما أن يقتص المرء ممن ظلمه فهذا يقدر عليه كلُّ أحد، بل هذا ما تشترك فيه جميع الحيوانات، لا فرق في ذلك بين من يعقل وما لا يعقل، ولا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، والله سبحانه وتعالى يريد للمؤمنين المعالي دوماً،

---

(١) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٥٥ (٩٧٤)، قال الألباني في الصحيحة ٦/ ٩٠٢، وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

لذا قال سبحانه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٤﴾ [فصلت] أي: قابل الغضب بالصبر، والجهل بالحِلم، والإساءة بالعفو، فيصير عدوّك كالصديق القريب في محبته، وما يؤتى هذه الخصلة التي هي أحسن إلا أولو العزم والصبر ممن تحلَّوا بصفات الكمال-من النساء والرجال- فأصحاب هذه الصفات الحميدة هم الذين يعفون ويصفحون ويغفِرون ويتجاوزون مهما فعل الآخر.

إن بعض الناس يعاملون الناس بأخلاقهم لا بأخلاق الإسلام التي أمر الله بها، فيحسنون للمحسن ويسيئون للمسيء، فتصبح أخلاقهم خليطاً من الأخلاق الحسنة والرديئة، وما بهذا أمـــــرنا الإسلام بل قـــد قال النبي ﷺ: «... **وخالق الناس بخلق حسن**»[1].

(١) رواه الترمذي في سننه ٤/ ٣٥٥ (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح وحسنه الألباني.

الوقفة الخامسة:

الصفات الذاتية وأثرها في الإصلاح:

إن القيام بأعباء الإصلاح والدعوة إلى الله تحتاج ممن يتصدَّى لها أن يكون قدوة يسترشد الناس بأقواله وأفعاله كي يُحدِث فيهم التغيير المطلوب، ولتحقق ذلك شروط، منها ما نقله ابن القيم عن ابن تيمية – رحمهما الله-حيث قال: «بالصبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة] »[1]، فالصبر واليقين صفتان ذاتيتان جعلهما الله سبحانه وتعالى كالشرط لتحقيق إمامة الهداية إلى صراط الله المستقيم، فلا يمكن أن ينجح المرء في دعوته، في بيته، بل في مجتمعه وأمته، إلا بالصبر واليقين؛ فالصبر عمل القلب والجوارح، واليقين عمل القلب.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٥٤.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أواخر سورة الفرقان دعاء عباد الرحمن حيث قالوا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان]، فكان هذا الدعاء بطلب إمامة المتقين خاتمة لكثيرٍ من صفات عباد الرحمن الذاتية المباشرة التي ذُكرت في الآيات السابقة عليه، فكأن هذه الصفات هي كالشروط لتحقق هذه الإمامة، وهذا يستدعي الوقوف مع هذه الآيات، ولكن قد سبق ذكر هذه الصفات قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له ﷻ فمن فاته عمل في الليل، استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل» [1][2]، وفي هذا مناسبة جميلة لما سيأتي من

---

(١) مسلم ٤/ ٢١١٣ (٢٧٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٢.

صفات المؤمنين، حيث قَدَّمَ سبحانه ببيان فضله عليهم إذ جعل لهم في تعاقب الليل والنهار فسحةً للقيام بالعبادات المتنوعة، لأن النفس تَنشَطُ بتنويع العبادة وقد تضجَر إن كانت على سوية واحدة، وفيه أيضاً أن المدخل الصحيح لاستحقاق وصف عباد الرحمن إنما هو العبادة بأنواعها الثلاثة كما سيأتي.

وقد افتتح الله ﷻ صفات عباده بقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]، أي: بسكينة ووقار وتواضع، من غير تجبر واستكبار أو أشر أو بطر، وليس المقصود تصنع المشي بضعف وذلة، فقد كان النبي ﷺ: «**إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا كأنما ينحطُّ من صبب**»[1]، وروي عن عمر رضي الله عنه «أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعَلاهُ بالدرة وأمره أن يمشي بقوة»[2]، وقد وردت هذه الصفة في غير آية كما في قول لقمان عليه السلام لابنه: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ [لقمان:١٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) الشمائل المحمدية للترمذي ١/ ٣١ (٥)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣).

مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]، فهذه المشية التي قد لا يعيرها بعضهم اهتماماً لها دلالة كبيرة على صفات صاحبها، فالمشي بسكينة ووقار يدل على رجاحة عقل صاحبه واتزانه، والمشي بتبختر وتمايل يدل على خِفة عقل صاحبه أو تكبره وتجبره.

فكثير من الأفعال والسلوكيات تدل على حقيقة أصحابها وصفاتهم، فيمكن بملاحظتها تخمين باطن صاحبها وما يتصف به من المحاسن أو المعايب، وهو ما يُسمَّى بدلالات الأفعال، أو انحراف الزاوية.

ومن ذلك أن الإمام أحمد رحمه الله يقول: «من ترك الوتر عمداً فهو رجل سوء، ولا ينبغي أن تقبل له شهادة. وأراد المبالغة في تأكيده... وإلا فقد صرَّح في رواية حنبل، فقال: الوتر ليس بمنزلة الفرض»[1]، لكنه يريد أنه لا يمكن أن يتركه رجل صالح عمداً وقد علم أنه سنة مؤكَّدة عن النبي ﷺ.

---

(١) ينظر المغني لابن قدامة المقدسي ١/ ٨٢٧.

ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[1]، وكان من هديه ﷺ نوم بعض الليل وقيام الباقي، كما قال: «لكني أصلِّي وأنام... فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

ثم ذكر سبحانه من أوصافهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان:٦٥]، فهم ملازمون للدعاء الذي هو مخ العبادة، ملازمون للخوف من الله ﷻ فلا يغترون بقيامهم وعباداتهم، ويعلمون أنه لا يصرف عنهم عذاب جهنم إلا صارف رحمة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] فإذا كان ما سبق يتناول عبادات بدنية وقلبية فهذه عبادة مالية، ولم يصفهم الله ﷻ بأنهم يؤدون الزكاة التي هي حق المال المفروض فيه فحسب، بل ذكر مطلق النفقة، فبين أنهم يسلكون فيها مسلك الوسطية والاعتدال، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩]، فمدْحُ عباد الرحمن بالتوسط في الإنفاق دليل على

---

(١) البخاري ١/ ٣٨٠ (١٠٧٩).

(٢) البخاري ٥/ ١٩٤٩ (٤٧٧٦)، مسلم ٢/ ١٠٢٠ (١٤٠١) واللفظ له.

أن التوسط هو وصفهم في كلِّ الأمور، والوسطية منهج الإسلام في العقائد والعبادات والمعاملات، ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله: «دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه»[1]، ومنهج التوسط هو الذي يمكِّن صاحبه من الاستمرار في صلاته، وصيامه، وذكره، وسائر عباداته، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الدين يسر ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه**»[2]، قال الحافظ: «والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب»[3]، ولهذا نجد الشباب الذين وصلوا إلى مرحلة الغلو والاندفاع، أسرع الناس سقوطاً ونكوصاً على الأعقاب لأن طريقهم مخالف لمنهج الوسطية.

إن منهج التوسط هو منهج النجاة حتى في مجال العقيدة؛ قال عليه السلام: «**هلك المتنطعون قالها ثلاثاً**»[4]، قال النووي - رحمه الله- في الشرح: «أي: المتعمقون الغالون المجاوزون

---

(١) الفتاوى الكبرى ١/ ١١١.

(٢) البخاري ١/ ٢٣ (٣٩).

(٣) فتح الباري ١/ ٩٤.

(٤) مسلم ٤/ ٢٠٥٥ (٢٦٧٠).

الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[1].

إذاً لا إفراط ولا تفريط، بل اعتدال وقصد كما كانت حاله عليه السلام في أموره كلِّها، في عبادته، ومعاملاته، في أكله، وشربه، ونومه، وفي كلِّ حياته.

ومن صفاتهم التي ذكرها الله عز وجل في الآيات قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعَم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾[2]، وهذه الآية مع ما قبلها تبين أن عباد الرحمن

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٦/ ٢٢٠.

(٢) البخاري ٦/ ٢٥١٧ (٦٤٦٨)، مسلم ١/ ٩٠ (٨٦).

يحافظون على الأصول الكلية الخمسة التي جاءت الشريعة بالحفاظ عليها، وهي الدين والنفس والنسب والعقل والمال، فنبذ الشرك فيه حفاظ على الدين، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق فيه حفاظ على النفس، وعدم الزنا فيه حفاظ على النسب، ومن قبلُ دلَّ مشيهم هوناً وعفوهم عن الجاهلين على حفاظهم على العقل، ودلَّ توسطهم في الإنفاق على حفاظهم على المال، فلحفاظهم على مقاصد هذه الشريعة الغراء نالوا الثناء من الله تعالى بوصفهم بمقام العبودية، ونالوا شرف الإضافة إليه سبحانه حيث قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.

وقد بينت الآية الكريمة أن أصول الشر: شبهة، أو شهوة، أو قوة غضبية؛ فالشرك شبهة، والزنا شهوة، والقتل بغير حق قوة غضبية، فالشبهات يندرج تحتها الكفر بأنواعه، والبدع وضلالات الاعتقاد بأنواعها، والشهوات يندرج تحتها الزنا والربا وأكل الحرام وغير ذلك من المعاصي التي تشتهيها الأنفس المنحرفة مما لا يحصيه إلا الله، وأما القوة الغضبية فيترتب عليها مفاسد عظيمة لا يعلمها إلا الله من قتل وبطش وتعذيب

وتنكيل، فإذا حمى الله عبده من هذه الآفات الثلاث صار متصفاً بصفات عباد الرحمن.

ومن صفاتهم أيضاً أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، وليس المقصود الشهادة بالباطل على أمر من الأمور فحسب- كما قد يُتوهم- بل المعنى أعم من ذلك، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقل لا يشهدون بالزور، فقد يشهد الإنسان الزور، ولكن لا يشهد بالزور.

فالمقصود بشهادة الزور حضوره والعمل به، وقد تعددت أقوال العلماء في المراد بالزور في الآية، قال الطبري رحمه الله: «فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل: لا شركاً، ولا غناءً، ولا كذباً ولا غيره»[1]، فمن حضر منكراً يستطيع تغييره فلم يغيره فقد شهد الزور، ومن ذهب إلى مكان فيه من الباطل ما فيه طائعاً مختاراً لا للإنكار فقد شهد الزور.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٤٢٠.

ولهذا استثنى الله ﷻ في تتمة الآية ما وقع منهم لا عن قصد واختيار فقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾، قال الطبري رحمه الله: «مرورهم كراماً في بعض ذلك بأن لا يسمعوه، وذلك كالغناء، وفي بعض ذلك بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أوذوا بإسماع القبيح من القول، وفي بعضه بأن ينهوا عن ذلك، وذلك بأن يروا من المنكر ما يُغير بالقول فيغيروه بالقول، وفي بعضه بأن يضاربوا عليه بالسيوف، وذلك بأن يروا قوماً يقطعون الطريق على قوم فيستصرخهم المراد ذلك منهم فيُصرخونهم، وكل ذلك مرورهم كراماً»[1].

ومن طريف ما يذكر في مقام الإعراض والصفح، أن الأحنف ابن قيس وكان مضرب المثل في الحِلم- لحقه سفيه، وبدأ يسبه ويشتمه فلم يلتفت إليه ولم يجبه بشيء، فلما وصل إلى حيه وقف، وقال له: أكمل. فاستغرب الرجل وقال: لماذا وقفت؟ فقال الأحنف: أخشى أن يراك بعض سفهاء قومنا على حالك هذه فيؤذيك، فأطرق الرجل رأسه وذهب.

---

(١) السابق.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان]، قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: والذين إذا ذكَّرهم مُذكِّر بحجج الله، لم يكونوا صُماً لا يسمعون، وعُمياً لا يبصرونها، ولكنهم يُقَّاظُ القلوب، فُهماء العقول، يفهمون عن الله ما يُذَكِّرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم إليه، فيوعون مواعظه، آذاناً سمعته وقلوباً وعته»[1].

ثم يأتي خاتمة هذه الصفات الفاضلة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان]، فهم يدعون الله ﷻ أن يصلح أزواجهم وذرياتهم فيلازموا طاعة الله، وهذا من أعظم ما تقر به عين المؤمن في الدنيا، ثم إنهم بعد أن كملت صفاتهم وشمائلهم سألوا الله ﷻ أن يكونوا أئمة للمتقين كي ينالوا أجر الاقتداء بهم حتى بعد موتهم.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٤٢٢.

وكأن ذكر هاتين الآيتين هنا فيه البشارة للمؤمنين بأنهم إذا حققوا كلَّ هذه الصفات السابقة، فليبشروا بإمامة المتقين، وليبشروا بصلاح الذرية، وليبشروا بالرفعة في الدارين.

لقد أثبتت الآيات لعباد الرحمن كثيراً من الصفات الإيجابية، ونفت عنهم كثيراً من الصفات السلبية، وجمعت أصول الفضائل، وأصول الرذائل، وختمت سورة الفرقان، لتكون فرقاناً بين عباد الرحمن وعباد الشيطان، وفرقاناً بين الحق والباطل، فينبغي أن تكون ميزاناً دقيقاً لكلِّ داعية وكلِّ مصلح، فيعرض نفسه عليه ليعلم منزلته عند الرحمن، وهل معه من التقوى والإيمان والعبادة ما يؤهله كي يكون إمام هدى يأتم به الناس أم لا.

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد تركيزاً كبيراً على بناء الصفات الذاتية لأفراد المجتمع المسلم، وفي خواتيم سورة الفتح إشارات عجيبة إلى أثر هذه الصفات في تحقيق التغيير المطلوب، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح]، فكأن سائلاً يسأل: ما سرُّ هذا الانتصار؟ ما سرُّ هذا الفتح المبين؟ ما سرُّ ظهور الدين؟ فيأتي الجواب: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]، فهذه صفات من كتب الله الفتح على أيديهم، فمن كان يريد النصر، ويريد الفتح، ويريد ظهور الدين، فليتمثل هذه الصفات، وليتمثل صفات الأنبياء الذين قال الله عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، والذين وعدهم بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الصافات].

ولهذه الصفات الذاتية دور كبير في حفظ الأولاد وصلاحهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء]، فبيَّن

سبحانه وتعالى أن من اتصف بالتقوى والقول السديد في من باشر أمرهم من اليتامى، أقرب إلى أن يقيض الله لأولاده من بعده من يتقيه سبحانه فيهم ويقول في أمرهم بالقول السديد.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف:٨٢]، فحفظ الله سبحانه وتعالى الغلامين بصلاح أبيهما، بل قيل: إنه لم يكن أبوهما المباشر، بل كان الأب السابع، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقرَّ عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة»[1].

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٤.

الوقفة السادسة:

من صفات الأنبياء عليهم السلام

إن المتدبر في آيات القرآن الكريم يجد فيه تركيزاً عجيباً على الصفات الشخصية للأنبياء والمرسلين، الذين هم أئمة الصلاح والإصلاح عبر العصور، بينما لا يكاد يجد تركيزاً على نتائج أعمالهم، كما يجد أنه لا يربط المؤمنين بما يجعله بعض الناس أهدافاً وغايات كبرى، بل يربطهم بالغاية الحقيقية التي وجدوا من أجلها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، فهذه هي الغاية الكبرى التي ينبغي تحقيقها والحرص عليها.

أما ما يجعله بعض الناس غايات كبرى؛ كتحقيق التمكين، والنصر على الأعداء، وإقامة الدولة الإسلامية، فليس هو -على أهميته- الهدف الأعظم، بل هو مرحلة من مراحل تحقيق العبودية الخالصة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ

وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج]، وكما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف]، فالاستخلاف والتمكين ليس غاية بحد ذاته بل هو اختبار وابتلاء من الله عز وجل للمؤمنين لينظر أيقومون بواجب العبودية حال التمكين كما قاموا به حال الاستضعاف أم لا؟

وهو كذلك منة من الله بين عبادتين، فهو نتيجة لعبادات عظيمة هي الاستعانة بالله والصبر والتقوى كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]، ومقدمة لعبادة عظيمة هي القيام بأمر الله كما مرَّ قبل قليل.

ولهذا فإن الله عز وجل عندما بعث موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل إلى فرعون وهو حاكم دولة كافرة طاغية متجبرة، وقد ادعى الألوهية، دعا ربه بكلمات فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾

وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه] ثم ربط كلَّ ذلك بغاية عظيمة هي غاية الغايات فقال: ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [طه] فلم يقل: كي نقوض ملك فرعون، ولم يقل: كي نقيم الدولة الإسلامية، بل قال: كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، أي: كي نعبدك كما تحب وترضى، فكلُّ هذه الدعوات التي دعا بها موسى، عليه السلام، إنما هي مقدمات لعمل طالما غفل عنه الكثيرون في خضم الانشغال بالعمل الدعوي والمتعدي، فينسون مسألة التسبيح والصلاة والصيام ويضعفون فيها، ويعتبرون هذا حجة لهم.

إذاً فالتمكين وإقامة الدولة المسلمة وتحكيم شرع الله الذي يسعى له كثير من المصلحين في أنحاء الأرض- وحقّ لهم ذلك- ليس سوى مرحلة من مراحل تحقيق الغاية الكبرى من وجودنا على الأرض ألا وهي العبودية، والتي هي بدورها مفتاح دخول الجنة، وهي غاية كلِّ مؤمن ومؤمنة.

إن الله سبحانه وتعالى لم يعلِّق دخول الجنة على نتائج الأعمال، فلم يقل إن من يدخل الجنة هو من يَصلُح الناسُ على

يديه، ولا من يقيم الدولة الإسلامية، ولا من ينتصر على أعداء الدين، لأن هذا ليس للعبد، فقد لا تكون دولة، وقد لا يُصلَح الناس، بل قد لا يصلح حتى أولاده، وقد لا يتحقق النصر على يديه هو، لكنه سبحانه وتعالى علَّق دخولها على الصفات الشخصية للمؤمنين من التقوى والعمل الصالح بقطع النظر عن نتائج هذا العمل، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم]، وقال عزَّ من قائل: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل].

إن الذي يجعل النتائج المادية المحسوسة هي مقياس نجاح الإنسان في واجبه المناط به شرعاً يخطئ خطأً فادحاً، لأن النجاح إنما هو في أداء الواجب بلا تقصير، وأما النتائج فليست لأحد من الخلق كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]، فإذا كان هذا يقال لسيد ولد آدم أجمعين فكيف بمن هم دونه من أتباعه، بل قد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «عُرضت عليَّ الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس

معه أحد»[1]، ولا يتصور متصوّر أن هؤلاء الأنبياء الكرام قد فشلوا في دعوتهم أو قصَّروا في أداء الواجب، بل إنهم قد أدّوا ما عليهم من واجب البلاغ والدعوة إلى الله ﷻ خير أداء، بل إنه سبحانه - وبرغم قلة من آمن بهم-قد نصرهم، كما نصر زكريا عليه السلام وقد نُشر بالمنشار، وكما نصر يحيى عليه السلام وقد قُطعت رأسه، لكنه نَصرٌ غير النصر المادي الذي لا يعرف بعض الناس نصراً غيره، إنه نصر التوحيد الذي كانوا يحملون رايته، ونصر المبادئ والقيم الكريمة التي كانوا يدعون الناس إليها، إنه نصر إعلاء ذكرهم في العالمين إلى يوم الدين، إنه نصرهم على أعدائهم بالانتقام منهم في الدنيا، ويسوقهم يوم القيامة إلى جهنم وبئس المصير، بينما أنبياء الله في أعلى عليين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، قال البغوي - رحمه الله - في تفسيرها: «قال ابن عباس: بالغلبة والقهر. وقال الضحاك: بالحجة، وفي الآخرة بالعذر. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون

---

(١) البخاري ٥/ ٢١٧٠ (٥٤٢٠) واللفظ له، مسلم ١/ ١٩٩ (٣).

بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم، وإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قُتِلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قُتل، قُتل به سبعون ألفاً، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه»[1].

ومن جهة أخرى، فإنه لا يتصور نجاح أيِّ دعوة إصلاحية إذا لم يكن القائمون عليها مقتدين بأئمة الهدى من الأنبياء والمرسلين في صفاتهم الشخصية التعبدية التي لم يبينها لنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم عبثاً، وإنما بينها من أجل الاقتداء كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وكان مما قصَّه الله ﷻ علينا مِنْ هُداهم أن قال: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ ﴾ [الأنبياء] فحري بمن يريدون اقتفاء آثارهم والاهتداء بهديهم ليكونوا هداة بأمر ربهم أن يفعلوا الخيرات، ويقيموا الصلوات، ويؤتوا الزكوات، وبعبارة جامعة: أن يكونوا لله عابدين.

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ١٥٢.

وقد ذكر الله ﷻ في محكم كتابه كثيراً من الصفات الخاصة ببعض أنبيائه عليهم السلام، فمن ذلك قولـه عن إدريس عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ ﴾ [مريم]، فكان من صفاته عليه السلام أنه كان مبالغاً في الصدق حتى صار شعاراً ملازماً له، فكأنه من نتيجة ذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ٥٧ ﴾ [مريم].

ومن ذلك أيضاً قوله عن إسماعيل عليه السلام:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ ﴾ [مريم]، فمدَحه بالصدق في الوعد، وبأمر أهله بالصلاة والزكاة، وهذه صفات ذاتية استحق بها أن يكون عند الله مرضياً.

ومن ذلك قوله: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ٧٤ ﴾ [الأنبياء].

وقوله عن داود وسليمان: ﴿ وَكُلّٗا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ٧٩ ﴾ [الأنبياء].

ولنا وقفة تأمل مع داود وسليمان عليهما السلام، إذ قد جمع الله سبحانه وتعالى لهما الملك والنبوة، وبرغم ذلك نجد النبي ﷺ

يقول: «أحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ عليه السلام، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً، ويفطر يوماً»[1]، ولـهذا قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧﴾ [ص] أي: ذا القوّة في العبادة، إنه رجّاع إلى مرضاة الله.

فبرغم أعباء النبوة وما كلفه الله ﷻ به من تبليغ الناس دين ربهم ودعوتهم إليه، وبرغم أعباء الملك وما يلحق به من تسيير معايش الناس والحفاظ على مصالحهم، فقد كانت هذه عبادته عليه السلام فما شغلته أعباء النبوة ولا أعباء إدارة المملكة عن عبادته، بل عن أفضل درجات العبادة وأحبِّها إلى الله، بل ربما نستطيع أن نقول: إن هذه العبادة هي التي ساعدته على إدارة شؤون مملكته، وعلى إتمام رسالة نبوته التي اصطفاه الله ﷻ بها، وفي هذا درس بليغ لمن يحتج بالعمل المتعدِّي على التهاون في العبادات.

أما سليمان عليه السلام فقد مدحه الله -جلَّ وعلا- فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٣٠﴾ [ص]، أي: رجَّاع إلى مرضاة الله وتسبيحه والتوبة إليه، ثم بين الله ﷻ شيئاً من ذلك فذكر هذه القصة

---

(١) البخاري ١/ ٣٨٠ (١٠٧٩).

العجيبة ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص]، وقد قيل: إنها كانت عشرين ألفاً من أفضل الخيل التي أعدها عليه السلام للجهاد في سبيل الله، و «ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر والذي يُقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً»[1]، فما كان منه عليه السلام إلا أن ذبحها كلَّها وتصدّق بلحمها في سبيل الله، كلُّ هذا من أجل صلاة واحدة، وهو ما لا يقدر على عشر معشاره كثير من الناس، بل إنهم لا يستطيعون ذبحَ أهوائهم، وملاذَّ أنفسهم التي قد تُضيِّع صلوات وصلوات.

فلهذه القصة وما شابهها قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ وهنا ملمحٌ مهم حيث لم يقل: نِعم المَلِك، ولا نعم النبي، بل مدحه بمقام العبودية الحقة، فقال: نعم العبد، إظهاراً وتفخيماً لهذا المقام، كما مدح أيوب عليه السلام فقال: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]، أي: نعم العبد في عبادته وصفاته وصبره وتضحيته، وكما مدح سيد ولد آدم أجمعين بهذا المقام عندما امتنَّ

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤.

عليه بالإسراء فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]، مما يدل على عظم قدر هذه العبادات الذاتية عند الله سبحانه وتعالى.

وأما يوسف عليه السلام فقد وصفه ربنا عز وجل بصفات عدّة فقال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف].

وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٦].

وذكر قوله عن نفسه عليه السلام: ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف].

وهذه كلُّها صفات شخصية ليوسف عليه السلام الذي وصفه النبي ﷺ أنه أكرم الناس، حيث قال لما سألوه عن أكرمهم: «**فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**»(١).

ثم نأتي إلى أولي العزم من الرسل؛ فأما نوح عليه السلام وهو أول رسول إلى الناس بعد أن وقع فيهم الشرك-فقد ذكر الله عز وجل من

---

(١) البخاري ٣/ ١٢٢٤ (٣١٧٥)، مسلم ٤/ ١٨٤٦ (٢٣٧٨).

أمره فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤]، وهذا يدل على عظيم صبره عليه السلام في الدعوة إلى الله، والصبر عبادة عظيمة يأجر الله عليها بغير حساب، ومما يوضح مبلغ صبره على قومه طوال تلك القرون قوله عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾ [نوح]، ثم إن الله سبحانه وتعالى أثنى عليه عليه السلام فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ [الإسراء]، قال الألوسي رحمه الله: «في هذه إيماء إلى أن إنجاء من معه عليه السلام كان ببركة شكره، وحثٌّ للذرية على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر»[1].

فنجد الثناء عليه بالصبر وبالشكر، وهما صفتان عظيمتان، لا بد أن يتحلَّى بهما الداعية، بل لا بد أن يتحلَّى بهما كل مؤمن،

---

(١) تفسير الألوسي ١٠/ ٣٦٩.

قال عليه السلام: «عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَهُ كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له»[1].

وأما إبراهيم عليه السلام فقد تعدد ثناء الله عليه في كتابه العزيز، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ ﴾ [مريم].

وقوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا ﴾ [النحل:١٢٠] أي: خاشعاً طائعاً لله منحرفاً عن الشرك إلى التوحيد.

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ ﴾ [هود]، أي: بطيء الغضب، كثير الدعاء، رجَّاع إلى طاعة الله.

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ [الأنبياء:٥١]، أي: أنه عليه السلام كان من صغره قد ألهم الحق والحجة على قومه.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ ﴾ [ص] أي: أصحاب القوة في العبادة والبصيرة في الدين.

---

(١) مسلم ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ ﴾ [الذاريات]، قال: ابن كثير-رحمه الله-: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أولاً فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فَتِيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل»[1].

فمن أجل ما سبق وغيره من الصفات الشخصية استحق عليه السلام هذه المرتبة العالية ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ ﴾ [النساء].

واستحق أن يكون إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ [النحل: ١٢٠][2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٠.

(٢) ينظر تفسير الجلالين.

فينبغي لدعاة الإصلاح الذين يريدون أن يكونوا قدوة مؤثرة فيمن حولهم أن يتفقدوا هذه الصفات ويحققوها في أنفسهم أولاً، والله قادر سبحانه أن يجعل الداعية أمة كما كان إبراهيم عليه السلام أمة، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً... الأمة: الذي يُعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ»[1].

وأما موسى عليه السلام فقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- من أفعاله ما يدل على كثيرٍ من صفاته الشخصية فمن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]، فهذا يدل على صبره ودأبه في طلب مراده.

وقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف]، فهذا يدلُّ على تواضعه لمن أعطاه الله علم ما لا يعلم، ويدل على حرصه على تحصيل هذا العلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٧٩.

وقوله ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه] وهذا يدل على حرصه على مرضاة ربه ومسارعته فيها.

وقوله: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فعندما التقى جمع الإيمان بقيادة موسى عليه السلام وجمع الكفر بقيادة الطاغية فرعون، وليس ثمة إلا البحر، لم يتزعزع يقينه بربه ولم يُقصِّر في التوكل عليه.

وقوله: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص] وهذا دليل تذلله وافتقاره بين يدي ربه عز وجل.

وقوله: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص].

فلهذا وغيره استحق عليه السلام أن يمدحه ربه جل في علاه بقوله:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم]، وقد قرئت (مخلِصاً) بكسر اللام، أي: كانت أعماله كلُّها خالصةً لوجه الله عز وجل، وامتن عليه بأن جعله كليمه إليه تعالى:

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وأما المسيح عليه السلام فقد وصفه ربنا عز وجل فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]، ووصفه بما وصف به الملائكة المقربين العابدين فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢]، كيف لا وقد أقرَّ بعبوديته لله تعالى منذ كان في المهد حيث ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠]، وكيف لا وقد تبرأ من حوله وقوته بأن أقر بفضل الله عليه فقال: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم].

ثم إنه عليه السلام كما في حديث الشفاعة الطويل- يقول للناس عندما يطلبون أن يشفع لهم عند الله لبدء القضاء: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله-ولم يذكر ذنباً-نفسي نفسي كما هي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ[1]»، فكأنه عليه السلام ارغم أنه لم يذكر ذنباً يحول بينه

(١) البخاري ٤/ ١٧٤٥ (٤٤٣٥)، مسلم ١/ ١٨٤ (١٩٤).

وبين طلب الشفاعة- امتنع من ذلك حياءً من الله لما كان من الناس من اتخاذه عليه السلام إلهاً من دون الله، وكأنه عليه السلام قد علم أن أحق الناس بهذا المقام الرفيع إنما هو رسول الله ﷺ فأقر له به ودلَّ الناس عليه، وهذا كلُّه من صفاته الشخصية التي قد تكون سبباً لإنجاء الله له من أعدائه اليهود ورفعه إليه، ثم نزوله آخر الزمان لينتقم منهم، وليعلن براءته من فعل من انحرف عنه من أتباعه بأن اتخذوه إلهاً، حيث يقتل المسيح الدجال مُدَّعي الألوهية، ويصلي لله خلف إمام المسلمين مظهراً بذلك عبوديته المطلقة لله سبحانه.

ثم نختم بالكلام على صفات إمام المرسلين، وقدوة الدعاة والمصلحين، سيدنا وسيد ولد آدم أجمعين نبينا محمد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وقد زكَّاه ربنا ﷻ في لسانه فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم]، وزكاه في فؤاده فقال: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [النجم]، وزكاه في بصره فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم]، وزكاه كله عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].

وقد عُرِف عليه الصلاة والسلام بين قومه منذ نعومة أظفاره بالصادق الأمين، حتى إنهم كانوا بعد النبوة يضعون نفائس أموالهم عنده كأمانات، رغم ما كان منهم من عداء له ولدينه، ومن صفاته الشخصية عليه الصلاة والسلام أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يوحي إليه هيَّأَهُ لذلك، ففي حديث بدء الوحي أنه عليه الصلاة والسلام: «حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنَّثُ فيه - وهو التعبد الليالي ذواتِ العدد - قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها»[1]، وهذه الخلوة تعطي صاحبها الصبر والأناة، وتعينه على تحمل المشاق والصعاب، ثم إنه لما جاءه الوحي في الغار «دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع ثم قال لخديجة: أي خديجة! ما لي؟ وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيت على نفسي. قالت له خديجة: كلا، أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ،

---

(١) البخاري ٦/ ٢٥٦١ (٦٥٨١)، مسلم ١/ ١٣٩ (١٦٠) واللفظ له.

وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]، فقد علمت بفطرتها السليمة أن صاحب هذه الصفات الفاضلة لا يمكن أن يخزيّه الله أبداً، وهي رضي الله عنها وأرضاها لم تحكم بذلك بناء على ما تعلَمُه منه عليه الصلاة والسلام من صفات أخرى كالشجاعة والذكاء مثلاً، بل اختارت هذه الصفات بعينها، لأنها صفات كلِّ فاضل كامل، ومثله أقرب إلى توفيق الله ومعونته، وقد أقرّ النبي ﷺ هذا المعنى بدليل أن هذا الحديث قد روته عائشة، رضي الله عنها، وهي لم تكن قد ولدت بعد يوم بدء الوحي، وفي هذا الإقرار دلالة على أن من أراد أن يغيّر واقع الأمة عليه أن يتصف بمثل هذه الصفات كما كان النبي ﷺ.

وأما بعد الوحي فقد جاء إرشاد الله سبحانه وتعالى له في سورة المزمل – وهي من أوائل ما نزل من السور– فقال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل]، وقد كان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ ثم بيَّن له ربنا ﷻ في هـــذه السورة

(١) المصدر السابق نفسه.

مقــداره، وكــأن طول القيام بالنسبة له -عليه السلام- بمثابة الزاد والتهيئة لحمل عبء تلقِّي الوحي وتبليغ الرسالة الثقيل، ثم إنه عليه السلام بقي طوال حياته، وبرغم استتباب الأمر له، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، محافظاً على طول القيام، حتى إذا أَسنَّ وضعف، حافظ على صلاة الليل وهو جالس، كما جاء في الحديث «أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً! فلما كثر لحمه صلَّى جالساً فإذا أراد أن يركع قام، فقرأ ثم ركع» [1].

ومن صفاته عليه السلام أنه «كان إذا حَزَبَهُ أمر قال: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم» [2]، وكان «إذا حزبه أمر صلَّى» [3]، وكان

---

(١) البخاري ٤/ ١٨٣٠ (٤٥٥٧) واللفظ له، مسلم ٤/ ٢١٧٢ (٢٨٢٠).

(٢) مسلم ٤/ ٢٠٩٢ (٢٧٣٠).

(٣) سنن أبي داود ١/ ٤٢٠ (١٣١٩)، وحسنه الألباني.

يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[1]، وفي هذا دليل على أثر هذه العبادات المباشرة على القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء، والذي تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، ومن ثم أثرها على دعوة الداعية وعمله، فهذه العبادات هي الأصل الذي تُبنى عليه باقي الأعمال المتعدية من دعوة إلى الله، ونشر للعلم، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، وهو الأصل الذي يكاد يغيب عن ذهن كثيرٍ من المشتغلين بالدعوة والمهمومين بشأن الإصلاح، فلا يعطونها مكانتها، أو قد يعطونها بعض الشيء في رمضان أو في العشر الأواخر، بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ من المداومة عليها.

إن مما يجدر الالتفات إليه أن الله -سبحانه وتعالى-، بعد أن قصَّ من أحوال أنبيائه عليهم السلام وصفاتهم الكريمة ما قصَّ قال: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] فبيَّن سبحانه أن في هذا القرآن من الأوامر والنواهي والعِظات والإرشادات ما فيه كفاية وغُنية

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٧١٥ (٤٩٨٥)، وصححه الألباني.

للعابدين الطائعين من أمة محمد ﷺ، ومن ذلك ما بينه سبحانه من صفات أنبيائه، فهذه الصفات ما ذُكرت إلا كي نتمثلها ونتخلَّقَ بأخلاق أصحابها، وأحوج الناس لمثل ذلك هم ورثة الأنبياء من العلماء، ومن يحمل معهم هّمَّ هذا الدين من الدعاة والمصلحين والمربين، ثم بيَّن الله ﷻ أمراً مهماً وهو أن سيد الدعاة ما أُرسل إلا رحمة للعالمين، فينبغي على أتباعه أن يكونوا كذلك رحمة لخلق الله.

وأن يكون الداعية رحمة على أهله وأولاده، وعلى طلابه، بل على عموم المسلمين، وهذا الأمر يحتاج إلى عزيمة ومجاهدة، لأن الذي يخالط الناس قد لا يصبر على أذاهم، ولذلك يقول النبي ﷺ: «**إنَّ المسلم إذا كان مخالطاً الناسَ ويصبر على أذاهم خيرٌ من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[1]، وحتى يصل المرء إلى هذه الدرجة فيكون رحمة للخلق ينبغي أن يتدبر الآية السابقة، لأن العبادة الخالصة لله تعين على هذه الرحمة، كما أنها تعين المرء على تحمل واجباته، ولهذا قال شيخ

(١) سنان الترمذي ٤/ ٦٦٢ (٢٥٠٧)، وصححه الألباني.

الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين»[1].

فمن كان علمه لله، وعمله لله، سيكون غضبه لله، ولن يغضب لنفسه، وسيصبر على أذى الناس فيكون رحمة لهم، وسيقهر نفسه، ويقابل الإساءة بالإحسان لأن عمله لله، وليس هذا لكلِّ أحـــد، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت].

(١) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ١/ ٧٨.

الوقفة السابعة:

صور معاصرة مشرقة[1]

إن من الناس من يخيل إليه أن ما سبق ذكره من صفات الأنبياء والمرسلين، أمر لا مطمح لمن بعدهم أن يدركه، ومما لا شك فيه أن الله ﷻ قد اختص رسله وأنبياءه بصفات لا يُدركها غيرهم لمقام النبوة، لكن الأصل الذي لا ينبغي المحيد عنه أن ما ذكره سبحانه من صفات الأنبياء إنما هو للاقتداء كما قال تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] وكما قال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] ، وأن ما ذكره من قصصهم إنما هو للعبرة كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

---

(١) أفدت كثيراً من شريط للشيخ عبدالسلام العييري وفقه الله وقد ذكر فيه كثيراً من هذه النماذج.

ومن الناس كذلك من يتخيل أن سير العُبَّاد والصالحين إنما هي قصص تاريخية، فتقتصر الفائدة من قراءتها على الترحُّم على أصحابها، والتحسُّر على حالنا.

ولقطع الطريق على هذه الشبهة نورد شيئاً من قصص علمائنا المعاصرين من أئمة الهدى الذين تحيا القلوب بذكرهم لنبين أنهم جمعوا بين جانب تعليم العلم، والدعوة إلى الله، والجانب التعبدي، لتكون تلك الصور المقتبسة من حياتهم دافعاً لشحذ الهمم للوصول إلى ما وصلوا إليه، لأن الخير في هذه الأمة لا ينقطع إلى يوم القيامة.

الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله:

كان الشيخ – رحمه الله-إماماً من أئمة المسلمين بحق، فهو يحمل هَمَّ هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها، يتألم لألم المسلمين ويفرح لفرحهم، ويبذل علمه ووقته وجاهه لخدمتهم والسهر على ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وهو أمر معروف للقاصي والداني، وبرغم أشغاله وما يحمله من أعباء فقد كان حريصاً على عبادته، والمقربون منه –رحمه الله- يروون من ذلك

الشيء العجيب، حتى إنه -رحمه الله- ما فاتته صلاة الفجر إلا مرة واحدة[1].

وقد زرتُه في يوم من أيام الجمعة عام اثنتين وتسعين تقريباً في المدينة المنورة، فأذن الأذان الأول وقد وضع الشاي، والشيخ قد انتصفت كأسه، فما إن سمع (الله أكبر) حتى وضع الكأس وقال: «الصلاةَ الصلاةَ، نتابع بعد الصلاة إن شاء الله»، فما قال نكمل موضوعنا وشرابنا ثم نذهب، بل بادر من فوره، مع صعوبة الصعود لمكان السكن، وما عُرف -رحمه الله- إلا في الصف الأول خلف الإمام في كلِّ صلاة.

وكان من عجيب عباداته -رحمه الله- أنه حجَّ اثنتين وخمسين سنة، فما ترك الحج -وقد بلغ قرابة التسعين- إلا في آخر سنة من حياته لما أتعبه المرض، وكان عازماً على الحج في السنة التي بعدها، إلا أنه توفي في المحرم منها عام ١٤٢٠هـ.

وأما أعماله في الحج، فقد شاهدنا منها -رحمه الله- الشيء الكثير، فكان دائم العبادة والذكر، إلى جنب إفتاء الناس، فقد

---

(١) ذكر ذلك مدير مكتب البيت الشيخ محمد الموسى.

كان –رحمه الله– يبذل كل ما في وسعه من أجل تبصيرهم بأمور دينهم، حتى إنه قد يكون نائماً أحياناً فيأتيه من يوقظه من أجل فتوى، وكان يجتمع عليه من زحام المستفتين في الموسم ما لا يجتمع على غيره، وهذا مما قد يضجر المرء ويغضبه لكنه –رحمه الله– كان يؤدي واجبه بكل صبر وأناة، وما أعلم أنه غضب لنفسه قط، بل كثيراً ما كان يُساء إليه بكلام، أو شتم فلا يزيد عن أن يقول: سَبِّح، سَبِّح!

الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله:

قصص الشيخ –رحمه الله– كثيرة، وقد كنا في رمضان عام ١٤١٢ أو ١٤١٣ في مكة، فسألنا بعض طلابه الملازمين له، فذكر أنه –رحمه الله– ما كان يضع رأسه على الوسادة أكثر من ثلاث ساعات ونصف أو أربع ساعات، ثم يقضي باقي الوقت في التدريس والطواف وقراءة القرآن وزيارة التلاميذ لتفقد أحوالهم، والمسؤولين للسعي في حوائج الناس لديهم.

وكان من عجيب أمره–رحمه الله– أنه كان يطوف كل يوم وهو صائم في الساعة الحادية عشرة برغم شدة الحر–وقد كان

الوقت صيفاً- وما ذلك منه -رحمه الله- إلا توسعة على المسلمين، فيطوف في وقت يقلُّ فيه الطائفون!

وفي أحد الأيام، ألقى درسه بعد صلاة الفجر في الدور الثاني في الحرم كما يلقيه كلَّ يوم، فلما انتهى قال: «يا إخوان، أنا لا أسمح لأحد أن ينقل عني من هذا الدرس شيئاً، لأنني ألقيته وأنا نائم»، يقصد أنه من شدة إعيائه ألقاه في حال بين اليقظة والمنام، فقيل له: نحن لم نلحظ شيئاً يا شيخ، فقال: «لا، لا أسمح لأحد، وسوف أعيد الدرس من الغد».

وقد كنت معه في إحدى السنوات في الحج، فأردت أن أحمل عنه فراشه في يوم عرفة فوالله ما وافق، وأردنا أن نصبَّ له الماء فرفض، وهو يقول: هل أنا لا أستطيع؟ ولا أسمح لأحد أن يخدمني!

وكان -رحمه الله- يبدأ الإجابة على الفتاوى في مِنى من بعد الفجر ويستمر إلى الظهر، فيتعاقب عليه ثلاثة أو أربعة من قُرَّاء الأسئلة، برغم أن قراءتها أسهل من الإجابة، والشيخ جالس على

الكرسي يجيب بلا كلل أو ملل، فلا يرتاح إلا شيئاً قليلاً لتناول الفطور، أو لاستراحة بسيطة.

ومن أحواله –رحمه الله– أنه كان يذهب إلى مسجده ماشياً دائماً، رغم بعد المسافة، فيذهب وهو يقرأ القرآن، ويرجع ومعه الناس كي يجيب عن أسئلتهم، ويقضي حاجاتهم.

وأما آخر أيامه – رحمه الله– فحاله فيها مما لا ينقضي منه العجب، حيث كان يرقد في مستشفى التخصصي وقد أنهكه المرض، حتى وصل وزنه إلى قرابة خمسة وعشرين كيلو، وبرغم ذلك فقد أصرَّ أن يذهب في رمضان إلى الحرم المكي، فحملوه في طائرة، وخَصَّصوا له غرفة في الحرم حيث كان يلقي منها الدروس، وقد استمعت إلى بعض دروسه، وبعد الدروس استأذنا في الدخول عليه، فأذن –رحمه الله–، فرأيته لآخر مرة وكان يلقي الدرس وهو مُستلقٍ على السرير على ظهره!

ثم إنه –رحمه الله– استمر على هذه الحال إلى قبل انتهاء رمضان بليلة واحدة، فأصيب بإغماءَة، فذهبوا به إلى المستشفى التخصصي بجدة، فلما أفاق قال: أين أنا؟ قالوا: في جدة، فقال:

أرجعوني إلى الحرم، فقالوا: يا شيخ ما بقي إلا ليلة واحدة، فقال: أتريدون أن تحرموني هذه الليلة، وقد تكون آخر ليلة في حياتي؟

وبالفعل ذهبوا به، وأفتى الناس في برنامج "سؤال على الهاتف" في الإذاعة، وهو يرقد على السرير على ظهره في الحرم، وقد كانت آخر ليلة له في رمضان في الحرم لأنه تُوفي بعد رمضان بقليل.

يقول أحد الإخوان: دخلت عليه في المستشفى التخصصي قبل وفاته وطلبت منه أن يسامح المسلمين، يقول: فسامحهم إلا استثناء لا أريد أن أذكره، يقول، فقلت: يا شيخ حتى هذا الاستثناء، فقال: حتى هذا الاستثناء وبعدها بمدة يسيرة توفي في جدة - رحمه الله.

فهذا الجَلَد وهذه المواظبة على الطاعة، هذه العبادة وهذا العمل الصالح، لا يقدر عليه إلا من كانت عنده قاعدة صلبة، عنده قيام ليل، عنده صلاة، عنده ذكر، عنده -كما نحسبه والله حسيبه- قلب أوَّاب، يخاف من الله ﷻ، ويحمل هَمَّ المسلمين، ولا يحمل غِلاً لأحد منهم.

فلهذا وغيره رأيته-رحمه الله- في أحد أيام رمضان لما انتهى درسه في الساعة السابعة صباحاً في الدور الثاني من الحرم، يتحرَّك وسط جموع المحبين والمستفتين ببطء حتى وصل إلى باب الملك عبدالعزيز في الساعة الثامنة، فلم يتحرك خلال ساعة كاملة سوى هذه الخطوات من شدة الزِّحام عليه، فجعله الله ﷻ إماماً من أئمة الهدى ورفع قدره.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-:

وهو الإمام المفسر، الأصولي الشهير، صاحب كتاب "أضواء البيان"، هذا الكتاب العظيم، وهو كتاب تفسير معروف مشهور، وله كتب كثيرة جداً وقد توفي عام ١٣٩٣ تقريباً، ويذكر عن عبادته في المدينة الشيء الكثير؛ كان يخرج من الحرم المدني فيظل يذكر الله ويسبحه ويقرأ القرآن حتى يصل إلى بيته، ويذكرون من زهده أشياء كذلك، وكان يقول: والله لو عُرضت على الدنيا كلُّها مقابل ما معي من علم ما قبلت، وبقي على حاله هذه حتى توفي، رحمه الله، وما قال يوماً، أنا مشغول بالتأليف، أو مشغول بالتدريس، أو غير ذلك.

الشيخ عبدالله بن يوسف الوابل رحمه الله:

وقد كان رئيس محاكم عسير، وأسس كثيراً من المدارس، وله منزلة ومكانة عند العلماء، فيذكرون من صلاحه، وعبادته، وذكره الشيء الكثير، حتى إنه بقي ذاكراً الله ﷻ إلى آخر لحظة من حياته، فشهد أن لا إله إلا الله، ورفع السبابة، ومات على ذلك كما قال من حضره.

وقد زرته واثنين من المشايخ قبل وفاته بوقت قصير وكان في مستشفى التخصصي، فقلنا له: أوصنا يا شيخ: فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، فكانت هذه وصيته لنا، ما زاد على ذلك أبداً، ثم رجع إلى تسبيحه وتهليله.

وقد كان أبناؤه وهو على تلك الحال يقرؤون عليه الكتب فيشرح ويبين، وبقي مريضاً مرضاً شديداً لمدة عشر سنوات فكان يدور في سريره من شدة الألم كما تدور الرَّحى، فلا يتألم ولا يئن ولا يشتكي إلى أحد.

يقول أكبر أولاده: منذ عرفت أبي كان يضبط الساعة على الثانية والنصف ليلاً، فيستيقظ ويصلِّي إلى الفجر، فهذا ديدنه صيفاً وشتاء، وفي الشتاء حيث يطول الليل تمتد صلاته لثلاث ساعات أو أكثر.

ثم بعد الفجر يُعلِّم أبناءه القرآن، ولذلك فأغلب أبنائه وبناته مع اختلاف تخصصاتهم يحفظون القرآن، فمنهم الطبيب، ومنهم المهندس، ومنهم المتخصص في الاقتصاد، ومنهم المتخصص في أعمال أخرى، ولكنهم من حفَّاظ كتاب الله جلَّ وعلا.

فهذا الإمام مع كثرة أشغاله وأعبائه لم يغفُل عن تعليم أبنائه، ولا غفل عن تعليم الأمـــة، ولا غفل عن عبادة ربه، ولا انشغل بهذه عن تلك.

الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم رحمه الله:

وهو معاصر وقد قابلته، وهو الذي جمع مع والده -رحمهما الله- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو من أعظم الكتب التي جُمعت في العصر الحديث، وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً ضخمة

فسافر خارج المملكة، وجمع فتاوى شيخ الإسلام من أماكن ومكتبات عالمية، وجلس سنوات حتى خرج بالكتاب الموجود بين أيدينا، كما أنه جمع أيضاً فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وهي موجودة ومتداولة الآن، بالإضافة إلى كثيرٍ من الكتب الأخرى.

وقد كان من عبادة الشيخ أنه كان يقوم قبل صلاة الفجر بثلاث ساعات ليصلي من الليل، وكان -رحمه الله- ينفق نفقة على بعض أقاربه لسنوات طويلة، فيعطيهم مبلغاً ثابتاً كل شهر، حتى ظنوه حقاً لهم لانتظامه ودقته وعدم تخلُّفه، كأن يكون وقفاً لهم والشيخ قائم عليه، فجاؤوه بعد سنوات قائلين: أعطنا حقنا!

ومن سمات الشيخ -رحمه الله-أنه قلَّما يؤذن المؤذن إلا وهو في المسجد، بل قال أحد أولاده: إنه ما فاتته صلاة الجماعة إلا مرة واحدة، فعلاه الحزن والتأثر، وقد ذُكِرَ عنه: أنه ما فاتته الصلاة منذ أن كان عمره ست سنوات.

وقد حج الشيخ -رحمه الله- خمسين حجة متتالية، رغم أنه مات في حدود السبعين أو تزيد قليلاً، أي أنه منذ كان في العشرين لم يترك الحج.

ومن أحواله أنه ما ترك قيام الليل حتى ليلة زواجه، وسِرُّ ذلك أنه قرأ كتاباً في فضل قيام الليل عندما كان في السابعة عشرة، فأثَّر فيه فما ترك القيام حتى مات.

ومن ذلك أنه صلَّى الفجر في أحد أيام الجمعة فبدأ يقرأ القرآن، وما دخل الخطيب إلا وقد أتم ختمة كاملة، وكان -رحمه الله- يختم القرآن كلَّ ثلاثة أيام، إلا أنه في آخر حياته صار يختم كلَّ يوم في رمضان.

وقد ذكروا أنه -رحمه الله- أُصيب بضعف في سمعه فجاؤوا له بطبيب فأشار بإعطائه جهازاً يقوي السمع، فرفض ذلك قائلاً: إن كثيراً من كلام الناس عدم سماعه أَوْلَى، والخوف أن يضعف بصري فأتوقف عن التأليف؛ لأنه نفع متعدي.

الشيخ محمد بن صالح المنصور رحمه الله:

وقد توفي قريباً، كان – رحمه الله- يقوم من الليل أربع ساعات، ويقرأ ستة أجزاء طوال أربعين سنة.

تقول إحدى زوجاته: إنه في إحدى الليالي لم يقم إلا قبل الفجر بساعة، فقام متأثراً وهو يستغفر ويسترجع ويردد: اللهم اجبرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها.

وقد نصحه الأطباء في مرضه الأخير ألا يصلي واقفاً، لكنه كان يأبى إلا أن يصلّي واقفاً.

ومن أحواله كذلك أنه دخل مرة إلى المستشفى للعلاج، وكان يرفض أن يصلي إلا مع الجماعة، فكان ابنه يذهب به على العربة، لكنه تأخر عليه في إحدى الصلوات فخاف أن تفوته الجماعة فنزل عن العربة وراح يحبو على يديه ورجليه حتى يدرك الصلاة.

وكان –رحمه الله- عالماً شجاعاً، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم، وقد أنكر يوماً منكراً عظيماً،

ودخل على بعض المسؤولين فأنكر وأغلظ في الإنكار، فغضب هذا المسؤول وقال: يبدو أنه لا حلَّ معك إلا أن تُسجن.

كما أنه لم يترك الحج أربعين سنة إلا مرة واحدة لما اشتد عليه المرض.

وقد سمعه من كان معه قبل وفاته بلحظات وهو يكمل ختمة من ختمات القرآن، ثم توفي بعدها رحمه الله.

وأخيراً فقد رأيت رجلاً سُجِنَ أكثر من ثماني سنوات بسبب قيامه بالدعوة إلى الله، لا بسبب جريمة أو دَيْن أو نحو ذلك، فرأيته لا يترك الجلسة بعد صلاة الفجر اقتداء برسول الله ﷺ الذي شرعها فيقول: هذه الجلسة من أكثر ما صبَّرني في السجن، وهي التي أمدني الله -جل وعلا- بسببها بالقوة، فخرجت من السجن على حال ترضي الله وأرضى بها عن نفسي.

وبعد، فهذا غيض من فيض من سير أعلام معاصرين جمعوا بين العلم والعمل، وبين العبادة المباشرة أو العمل القاصر والعمل المتعدي، فلم يمنعهم الإفتاء ولا التأليف ولا التدريس ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من المحافظة على

الصلوات، وقيام الليل، والمواظبة على الحج، والإكثار من تلاوة القرآن، ودوام الذكر والاستغفار، ولم يمنعهم كذلك من بذل المال في سبيل الله، ولم يمنعهم من المحافظة على القلوب وتزكيتها وتطهيرها من كل ما يقطعها عن بارئها.

فليس لأحد بعد هذا أن يتعلَّل بأننا لسنا أنبياء ولا مرسلين! ولا من الصحابة أو التابعين، فهذه النماذج – وغيرها كثير- موجودة بين ظهرانينا شاهدة على خيرية هذه الأمة، وحُجَّة على كلِّ مقصر ومتكاسل.

الوقفة الثامنة:

صلاح النساء وأثره في مسيرة الإصلاح

إن للمرأة دوراً عظيماً في عملية الإصلاح، ذلك أنها نصف المجتمع أو يزيد، ثم إنها تلد النصف الآخر، ولئن كان للمصلحين من الرجال دور كبير في إرشاد المرأة وتوجيهها وحضِّها على فعل الخيرات وترك المنكرات، بالدروس والمحاضرات، أو الأشرطة والمطويات، فإن جانب التواصل المباشر والاطلاع على مجتمع النساء كما هو، يكاد يكون معدوماً بالنسبة لهم، فتبرز الحاجة إلى وجود المرأة العالمة، والمرأة الداعية، والمرأة المصلحة التي تعايش مشاكل النساء عن قرب، وتسعى في حلِّها بما لا يستطيعه الرجال من الوسائل.

وعلى الجانب الآخر فإن المرأة أُمّاً وزوجةً – وقد استرعاهما الله رعية –، لا ينبغي لهما تضييعها، قال رسول الله ﷺ: «**ألا كلُّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم**»[1]، قال النووي رحمه الله:

---

(١) البخاري ٦/ ٢٦١١ (٦٧١٩) واللفظ له، مسلم ٣/ ١٤٥٩ (١٨٢٩).

"قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه: أن كلَّ من كان تحت نظره شيء، فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دنيه ودنياه ومتعلقاته»[1].

وقد كان لقيام الأم بهذا الدور الخطير أثر كبير في ظهور كثير من النوابغ من أهل العلم عبر تاريخنا، أذكر منهم سفيان الثوري- أمير المؤمنين في الحديث- حيث قالت له أمه: اذهب، فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادةً، فاتبعه، وإلا فلا تتعن[2]، ومنهم الإمام مالك -رحمه الله- حيث قال: كانت أمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[3].

وهذه الكلمات التي تقطر حكمة من هاتين المرأتين تدل دلالة أكيدة على عظم تأثير الأم في عملية الإصلاح، فقد كان من ورائها أن خرج إلى الدنيا أمثال هذين الإمامين العظيمين، لكن هذه الكلمات لا يمكن أن تخرج كيفما اتفق، بل هي لا تخرج إلا

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٢١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٩.

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ٣١.

من إنسان واع لحقيقة دوره في التربية، مدرك لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وقد صدق الشاعر حيث قال:

الأُمُّ مَدرَســـةٌ إِذا أعدَدْتَها أَعدَدتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعراقِ[1]

وما دام الأمر كذلك فإن للصفات الذاتية بما فيها الجانب التعبدي أهمية كبيرة بالنسبة للمرأة كما هي بالنسبة للرجل ولا فرق، وقد مرَّ في التاريخ نماذج رائعة للعابدات، فأفضلهن وأفضل النساء على الإطلاق من شهد لهن النبي ﷺ بالأفضلية كما في الحديث: «**خير نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ﷺ، وآسية امرأة فرعون**»[2].

وقد جمع هذا الحديث من أصناف النساء الصالحات بين المرأة التي لم تتزوج، والمرأة التي امتنّ الله عليها بالزوج الصالح، والمرأة التي هي بنت للرجل الصالح، والمرأة التي ابتليت بزوج معاند لله وعدو له.

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم، وهو من البحر الكامل.

(٢) صحيح ابن حبان ١٥/ ٤٠١ (٦٩٥١)، قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

أما مريم -عليها السلام- فقد كانت ملازمة للعبادة في محرابها ببيت المقدس كما أخبر تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران:٣٧]، ونحن إذ نذكر من حالها فلا ننسَ أن صلاحها وصلاح ابنها عيسى عليه السلام كان استجابة من الله عز وجل لدعوة امرأة أخرى صالحة هي: أُمها امرأة عمران كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن فضل مريم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين»[1].

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٢.

ورفع سبحانه بذلك ذكرها ومقامها فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم]، وقال: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة:٧٥]، وبرَّأها مما رماها به أعداء الله فقال: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء].

وقيض لها من الملائكة من يعينها على عبادته حيث قالوا لها: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران]، وفي هذا إعداد لها لتقوى على حمل العبء الذي قدَّره الله عليها كما قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورِفعة في الدارين»[1].

وشهد الله ﷻ أنها قد استجابت فقال: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم] أي: الطائعين.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ولهذا فإن مُعبِّري الرؤى يعبِّرون رؤيتها في المنام بتغير حال الرائي إلى الإقبال على العبادة، كما وقع لبعض طلاب العلم من المجتهدين في الدعوة إلى الله على تقصير منه في نوافل العبادة كما يخبر عن نفسه، ثم إنه لما رآها – عليها السلام- في الرؤيا فما هي إلا مدة قصيرة حتى تغيرت حاله في العبادة.

أما آسية امرأة فرعون فلم يبلغنا من أمرها الكثير، ولكن يكفيها من رجاحة عقلها وشفقتها ما كان منها يوم ألقى اليمُّ تابوتَ موسى -عليه السلام- بالساحل، فأشارت على فرعون بعدم قتله حيث قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص ٩]، فصدقت فراستها فيه عليه السلام فانتفعت به يوم آمنت بالله عز وجل وقد يكون من أعظم صفاتها أنها آمنت مع كونها زوجة هذا الطاغية الضال المضِل الذي ادَّعى الألوهية فقال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، فكان لديها من الجاه والعزِّ والنعيم وأبهة الملك ومنعته ما لم يتوفر لامرأةٍ من نساء زمانها، ثم إنها كانت ترى جبروت فرعون وطغيانه رأيَ العين، وتعلم تنكيله بمن يخالفه

علم اليقين، ومع ذلك كفرت به وآمنت بالله محتسبة ما ستلقاه في سبيله سبحانه وتعالى، ولئن لم يقدَّر لها في حياتها أن تكون داعية إلى الله ﷻ بلسان مقالها، فقد جعلها الله سبحانه داعية إليه بعد مماتها بلسان حالها، حيث ضرب بها مثلاً للمؤمنين خالداً إلى يوم الدِّين، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم]، فكان من تعلُّقها بالله وأدبها معه أن طلبت – وهي تحت العذاب- جوار ربها قبل الجنة فقالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ (عندك بيتاً في الجنة)، ولم تقل: (بيتاً في الجنة عندك)، فقبضها الله إليه راضية مرضية، رضي الله عنها.

وأما أم المؤمنين خديجة الكبرى – رضي الله عنها- فقد كان من خبرها ما مرَّ معنا يوم نزل الوحي الأمين على قلب رسول رب العالمين أول مرة، حيث كان لها دور كبير في التسرية عن رسول الله ﷺ، وتثبيت فؤاده، وتبشيره بما حصل له في الغار، وهذا بلا شك كان له أبلغ الأثر وأجمله على إمام الدعاة

والمصلحين بأبي هو وأمي، ولذلك لما قالت له عائشة -رضي الله عنها: "قد أبدلك الله ﷻ بها خيراً منها. قال: **ما أبدلني الله ﷻ خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدَّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء**"[1]، وهذا منه – عليه السلام- دليل باهر على عظيم خُلقه، حيث بادل إحسانها إليه في حياتها، بالإحسان إليها في حياتها وبعد مماتها رضي الله عنها، فلفضلها وعظيم قدرها عند الله بشَّرها سبحانه وتعالى كما ثبت في الصحيحين: "أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب"[2]، رضي الله عنها وأرضاها.

وأما فاطمة – رضي الله عنها- بضعة رسول الله ﷺ، فيكفي في بيان ما كانت عليه من الصفات والشمائل، ذكر حديث

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ١١٧ (٢٤٩٠٨)، قال شعيب الأرناؤوط، حيث صحيح.

(٢) البخاري ٣/ ١٣٨٩ (٣٦٠٩)، مسلم ٤/ ١٨٨٧ (٢٤٣٢).

يغني عن كل حديث، فعن عائشة أم المؤمنين قالت: «ما رأيت أحداً أشبه سَمْتاً ودَلَّاً وهَدْياً برسول الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ[1]، فلمثل ذلك حازت - رضي الله عنها- على شرف كونها سيدة نساء عالمها، لعل شرفها أن جعل الله ﷻ صلاح هذه الأمة في آخر الزمان على يد المهدي، وهو رجل من ذريتها الطاهرة المباركة، من نسل الحسن السبط رضي الله عنه، يوافق اسمُه اسمَ النبي ﷺ، ويوافق اسمُ أبيه اسمَ أبيه، وبذلك فليس هو مهدي الرافضة المزعوم.

ولا يسعنا أن نمر بهذا المقام دون ذكر أمنا عائشة رضي الله عنها، وما حباها الله به من الصفات، وقد مدحها النبي ﷺ فقال: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[2]، وقد يشكل هذا مع ما مرَّ من فضل خديجة - رضي الله عنها-، ونفي النبي ﷺ أن يكون الله ﷻ قد أبدله خيراً منها، والجواب عن ذلك كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: "سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام ونصرها وقيامها في الدين لم تشركها فيه

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٧٠٠ (٢٨٧٢) وصححه الألباني.

(٢) البخاري ٥/ ٢٠٧٠ (٥١١٢)، مسلم ٤/ ١٨٩٥ (٢٤٤٦).

عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام، وحمل الدين، وتبليغه إلى الأمة، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها"[1]، ويقول أيضاً عن عائشة رضي الله عنها: "فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من العلم والسنة ما لم يبلغه غيرها، فخديجة كان خيرها مقصوراً على النبي ﷺ نفسه، لم تبلِّغ عنه شيئاً، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعت بعائشة»:[2]، فيفهم من كلامه أن خديجة رضي الله عنها كانت خيراً له عليه السلام من غيرها من نسائه، وأن عائشة رضي الله عنها كانت خيراً لأمته من باقي نسائه، بل إنه لا توجد امرأة انتفعت بها الأمة انتفاعها بعائشة – رضي الله عنها- في روايتها وفقهها وعلمها، رضي الله عنها وعن أبيها.

وقد كانت رضي الله عنها-كما يقول الذهبي- من أكرم أهل زمانها؛ ولها في السخاء أخبار[3]، فمن ذلك أنها تصدقت يوماً

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٩٣.

(٢) منهاج السنة النبوية ٤/ ٣٠٤.

(٣) ينظر ترجمتها في سير أعلام النبلاء، ٢/ ١٩٨.

بسبعين ألفاً، وإنها لترقع جانب درعها رضي الله عنها[1].

وبعث لها معاوية يوماً بقلادة بمائة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين [2]، وبعث لها ابن الزبير بمائة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم؟ قالت: لا تعنفيني، لو أذكرتيني لفعلتُ[3]!

وقد كانت -رضي الله عنها- تجتهد في العبادة حتى إنها كانت تصوم الدهر[4]، وكانت بعد وفاة النبي ﷺ تحافظ على الاعتكاف -كباقي أمهات المؤمنين رضي الله عنهن- فعنها رضي الله عنها قالت: «إن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفَّاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[5].

وكان من خشيتها من الله -عز وجل- أنها كانت تقول: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة!

---

(١) حلية الأولياء، ٢/ ٤٧..

(٢) سير أعلام النبلاء، ٢/ ١٨٧.

(٣) السابق.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٨٦.

(٥) البخاري ٢/ ٧١٣ (١٩٢٢)، مسلم ٢/ ٨٣٠ (١١٧٢).

ولما حضرتها الوفاة دخل عليها ابن عباس -رضي الله عنهما- وراح يثني عليها فقالت: دعني عنك يا بن عباس، فوالله لوددت أني كنت نسياً منسياً[1].

إذاً صلاح المرأة واجتهادها في العبادة يعينها على أداء دورها في عملية الإصلاح، وهذا الأمر واقع ملموس نشهده حتى اليوم في مجتمعنا، فنجد تأثير المرأة في بيتها وأولادها، حيث يتخرج منه الدعاة والمصلحون والمربون، ونحن قد نغفل عن الكثير من صفات النساء الصالحات في هذا الزمان، لكن تتبع الأمر يشهد أن الخير كما أنه في رجال هذه الأمة إلى يوم القيامة فهو في نسائها كذلك.

فهذه امرأة تتصل مستفتية عن كفارة فوات صلاة الوتر، وهذه زوج أحد المشايخ لم تترك صلاة الوتر حتى ليلة الزواج، وهذه امرأة تتصل وتقول: إنها تخشى إن نامت أيام عادتها في الليل أن يفوتها قيام الليل في أيام طهرها فهي تقوم وتستغفر

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٢٨٦، وابن سعد: ٨/ ٥٧، وانظر الحلية: ٢/ ٤٥.

وتدعو الله وتقرأ القرآن، ثم تسأل: هل أنا مخطئة في ذلك؟ قلت: لا والله لست مخطئة، بل كثَّر الله من أمثالك.

ويجدر التنبيه إلى خطأ شائع بين النساء وهو ظنهن أن أيام الحيض لا يُقرأ فيها القرآن، ولا يُدعى ولا يُستغفر، وهذا غير صحيح، بل على القول الصحيح تقرأ القرآن، ولكن لا تمسه، فإن كانت حافظة فمن حفظها، وإن لم تكن حافظة فتلبس قفازات أو ما يمنع، وتقرأ القرآن، وأما الدعاء والاستغفار فلا شيء فيه البتة.

وهذه قصة لامرأة تُوفي عنها زوجها ولها خمسة أبناء، تبين أثر العبادة في صلاحهم، تقول: بدأت أوفر من ميراث زوجي، وأصرف على أولادي مصروفاً قليلاً، حتى ضاقت علينا الدنيا، ولأننا لا نريد أن نمد أيدينا لأحد، كنا نقول لمن يسألنا: نحن في حال طيبة ولله الحمد، وقد ترك لنا -رحمه الله- خيراً كثيراً، تقول: ثم إننا سمعنا أحد المشايخ يذكر حديث: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كلِّ ضيق مخرجاً، ومن كلِّ هم فرجاً،**

ورزقه من حيث لا يحتسب»[1]، فجعلت أستغفر أنا وأبنائي، وكانت عندنا أراضٍ لا قيمة لها، ولكن بعد مدة من لزومنا الاستغفار، أرادوا شق طريق في هذه الأرض، فتضاعفت قيمتها فأصبحنا من الأثرياء، تقول: وأكرمني الله في أولادي فشبوا صالحين، وصار أكبرهم من محفِّظي القرآن مع ما أنعم الله علينا من الخيرات.

وهذه امرأة أخرى في روسيا كانت تعلِّم الناس التوحيد والعبادة والصلاة أيام الحكم الشيوعي، فتنتقل بين البيوت دون أن يعلموا شيئاً عن نشاطها، وكان يساعدها بعض أزواج بناتها، فكبر أولادها وأصبحوا جميعاً من طلاب العلم، وأكرم الله أزواج بناتها كذلك، بل أصبح أحدهم مفتي مدينته.

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٤٧٥ (١٥١٨)، والحديث ضعيف وإن كان معناه صحيحاً وقد حسنه بعضهم.

الوقفة التاسعة:

أثر الإصلاح على حماية المجتمع

إننا عندما نتحدث عن أهمية الصفات الذاتية التي يجب أن يتمتع بها القائمون بالإصلاح، وعندما نركز على الجانب التعبدي من هذه الصفات، فإنما نفعل ذلك حرصاً على قافلة الصحوة من جهة، وحرصاً على مجتمعات المسلمين من جهة أخرى.

ذلك أن كل مجتمع من المجتمعات يحوي بلا شك الصالح والطالح، وكلَّما كثر الصالحون، كان هذا أرجى لتماسك المجتمع وتوحده في وجه المخاطر التي تتهدده، وكان أرجى لتنزل الرحمة على هذا المجتمع، فيحفظه الله بحفظه ويكلؤه بعنايته، ولذلك لما سألت أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- رسول الله ﷺ: «**أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**»[1].

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذا الحديث وما أشبهه على قولين ذكرهما الحافظ رحمه الله في الفتح حيث قال في شرح

---

(١) البخاري ٦/ ٢٥٨٩ (٦٦٥٠)، مسلم ٤/ ٢٢٠٧ (٢٨٨٠).

حديث: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»[1]:«جنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقاً، لا يرسل الله عليهم العذاب، بل يدفع بهم العذاب... [قال الحافظ]: وإلى ذلك جنح القرطبي في التذكرة»[2]، إلا أن الحافظ مال للقول الثاني وقال إنه: «أشبه بظاهر الحديث وإلى نحوه مال القاضي ابن العربي»[3]، يريد بذلك قوله عن حديث أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: «فيه البيان بأن الخيِّر يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغيِّر عليه خبثه، وكذلك إذا غيَّر عليه، لكن حيث لا يجدي ذلك، ويصر الشرير على عمله السيِّىء، ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد، فيهلك حينئذ القليل والكثير، ثم يحشر كل أحد على نيته»[4].

---

(١) البخاري ٦/ ٢٦٠٢ (٦٦٩١)، مسلم ٤/ ٢٢٠٦ (٢٨٧٩).

(٢) فتح الباري ١٣/ ٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) فتح الباري ١٣/ ١٠٩.

ومهما يكن من أمر فإنه من المتفق عليه بين الفريقين، أنه إن ظهر الخير على الشر في المجتمع كان في هذا حفظ له من الهلاك؛ ونحن في هذه الأيام أحوج ما نكون إلى مثل ذلك، لا سيما وقد تكالب أعداء الخارج وأعداء الداخل على أمتنا، وعلى بلادنا بخاصة، فوجهوا سهامهم وحرابهم إلى مجتمعنا يريدون إفساده.

إن السبيل لتكثير سواد الصالحين وتقليل سواد المفسدين كي يظهر الخير على الشر في المجتمع، إنما هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبإشاعة الخير ونشره، ومحاربة الشر وقمعه، وهذا هو دور المصلحين في كل زمان ومكان، وعملية الإصلاح المستمرة لم تكن في يوم من الأيام نوعاً من أنواع الترف، بل إنها أمر ضروري وحتمي لحماية المجتمع، كلِّ المجتمع من الفتن، والتهاون فيها يعرض المجتمع، كلَّ المجتمع، للوقوع في الفتن كما قال الله -جل وعلا-: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[الأنفال:٢٥].

ومصداق ذلك أن الناس كانوا يذهبون إلى العراق ليتزودوا بالميرة، وكان فيه من الخيرات التي امتن الله بها على أهله الشيء

الكثير، وكانت البصرة -مثلاً- من أهم مناطق السنة، لكنهم اليوم يُهجَّرون منها ويقتلون حتى لم يبق فيها منهم إلا القليل، والكثيرون منهم أُجلوا إلى المخيمات والبيوت الخربة ولا يكادون يجدون ما يأكلون، فهذه الفتنة التي نزلت بهم لم تفرق بين الصالح والطالح، ولا الظالم لنفسه والسابق بالخيرات.

لقد أجاب الله ﷻ دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة:١٢٦]، وامتن على أهل الحرم بهذه النعمة فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، والناظر إلى إخواننا من حولنا في فلسطين والعراق والصومال، ومن قبل في الكويت، ومن قبل في اليمن، وقبل ذلك في لبنان، يجد مصداق ذلك، فيجد الناس يُتخطَّفون من حولنا، ويجد البلاء والفتن، وما ذلك إلا بسبب كثرة المعاصي والذنوب وانتشارها، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الكافي.

ولا ينبغي لأهل هذه البلاد المباركة أن يركَنوا إلى كونهم من أهل الحرم، إذ قد أصابت الفتنة من هم خير منهم من أهل الحرم

كما قال الزبير ﷺ: «إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت»: [1]، يريد بذلك ما كان من اقتتال بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وبرغم أن الفتنة إذا وقعت لا تصيب الذين ظلموا خاصة، إلا أن القيام بأمر هذا الدين على الوجه الذي يرضي الله ﷻ، قد يكون سبباً في نجاة صاحبه من الفتنة أو تخفيف نصيبه منها، وقد يفهم هذا من الآية السابقة مباشرة حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]، ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾، فكأنه من لوازم الاستجابة لله وللرسول أو من توابعها اتقاء هذه الفتنة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

(١) مسند أحمد بن حنبل ١/ ١٦٥ (١٤١٤)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده جيد.

ولهذا قال ابن عباس في تفسيرها: «أمر الله المؤمنين ألا يقرُّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب»[1].

ومما يذكر في هذا المقام أنه قد دعاني أحد كبار الأثرياء في الكويت إلى بيته منذ مدة، فسألته عمَّا تعرض له البيت، وما فيه من أثاث ومفروشات ومقتنيات أثناء الغزو، فقال: إن هذا الأثاث الذي تجلس عليه الآن هو الأثاث نفسه الذي كان موجوداً عندما حصل الغزو قبل أكثر من عشر سنوات، وبرغم أن الغزاة قد نهبوا بيوت الجيران، ودمروا ما فيها إلا أنهم لم يأخذوا من بيتي إلا أقل القليل مما لا يكاد يذكر.

لقد تأملتُ في حال هذا الرجل – رحمه الله–، فوجدتُ أنه لا يكتفي بالتزكية عن ماله بربع العشر، بل إنه يخرج عشر ماله لله، ووجدته كذلك يكفل ألفاً وخمسمائة يتيم، ويشرف على جمعية تكفل خمسة آلاف يتيم، وكان يحدث بنعمة ربه فيقول: إن كثيراً من الناس ذهبت أموالهم خلال الغزو، لكن الله ﷻ بارك لي في مالي وحفظه بل زاد بعد الغزو.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٥.

بل إنه يقوم ببعض العبادات وقد نيف على الثمانين حتى وفاته مما يعجز عنه كثير من الشباب والكهول رحمه الله.

إذاً أعمال هذا الرجل الصالحة كانت سبباً في تخفيف الفتنة التي وقعت، وسبباً في حمايته وحفظ ماله، وهذا ليس خاصاً به وحده، بل إن هذه الأعمال الصالحة تحمي الفرد والمجتمع والدولة.

فنحن عندما نمد يد العون لإخواننا المنكوبين في مشارق الأرض ومغاربها، فإننا أولاً نؤدي لهم حقاً من حقوقهم علينا التي لا مِنَّةَ لنا فيها، وفوق ذلك ثانياً: ندفع بذلك من البلاء والمحَن عن بلادنا ومجتمعنا ما الله به عليم، ولو قُدر أن يقع شيءٌ من البلاء – نسأل الله العافية–فقد يكون في عملنا هذا ما يخفف من وطأته عن الجميع، أو عمن يقوم به على وجه الخصوص.

الوقفة العاشرة:

عبادات المنافقين وأثرها على مسيرة الإصلاح

لئن كنا فيما سبق قد تحدثنا عن العبادات التي تنفع صاحبها وتعينه على القيام بأعباء الإصلاح والدعوة إلى الله، فإننا نقف هنا وقفة مع عبادات لا تجر إلى صاحبها إلا غضب الله ومقته، وليست في الحقيقة إلا معول هدم يحاول به صاحبه أن يهدم ما يشيده المصلحون، تلك هي عبادات المنافقين الذين آمنت ألسنتهم وجوارحهم ولم تؤمن قلوبهم، والذين يشهدون أن لا إله الله، وأن محمداً رسول الله، ويصومون، ويصلون، ويشاركون في الغزوات، بل قد يعمل بعضهم من الأعمال الظاهرة ما لا يعمله بعض الصالحين، وبرغم ذلك فإنهم ﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥]، وقبل أن نحذِّر من الانخداع بعبادات وأعمال هؤلاء المنافقين، ينبغي لنا أن نكون على حَذَرٍ من أن نقع نحن أنفسنا في النفاق عياذاً بالله من ذلك، وقد قيل لأبي رجاء العطاردي، وكان تابعياً ثقة، لقي عمر بن الخطاب وغيره من

أجلة الصحابة: «هل أدركت ممن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق؟... قال: نعم، إني أدركت منهم -بحمد الله- صدراً حسناً، نعم شديداً، نعم شديداً»[1].

ولكي نتعرف على عبادات المنافقين التي يسعون بها للصدِّ عن سبيل الله، ولمعرفة الطريقة المناسبة للتعامل معها نستعرض بضع آيات من سورة براءة، والتي من أسمائها الفاضحة لأنها فضحت المنافقين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة]، وقد نزلت في أصحاب أبي عامر الفاسق، وهو رجل من الخزرج كان قد تنصَّر قبل الإسلام فلقب

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي ١/ ٧٨.

بالراهب، وكانت له منزلة عند قومه، فلما جاء النبي ﷺ المدينة دعاه للإسلام فأبى، ثم امتلأ قلبه حقداً وعداوة للنبي ﷺ بسبب ما ضاع من منزلته عند قومه، فمالأ قريشاً وآزرهم يوم أحد، وهو الذي حفر الحفر التي وقع في إحداها رسول الله ﷺ فأُصيب ذلك اليوم، فجُرح وجهه، وكُسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، ثم إن هذا الفاسق ذهب إلى قيصر يستعديه على النبي ﷺ ويحضه على إرسال جيش إلى المدينة فوعده بذلك، فطلب من شيعته من المنافقين في المدينة أن يتخذوا معقِلاً يصلهم فيه من يصلهم من حمله كتبه، ثم يكون له مرصداً حين يقدم إليهم، فبنوا هذا المسجد قريباً من مسجد قباء بحجة التخفيف عن المرضى والضعفاء في الليلة الشاتية المطيرة، وهم ما بنوه إلا تنفيذاً لمآرب أبي عامر الفاسق، وليفرقوا جماعة المسلمين بين المسجدين، ثم إنهم أتوا رسول الله ﷺ وهو يستعد للخروج إلى تبوك طالبين منه أن يصليَ فيه ليدعوَ لهم بالبركة، فوعدهم بذلك حال عودته من تبوك، إلا أن الله عصمه من ذلك حيث نزل جبريل عليه السلام قبل عودة النبي ﷺ إلى المدينة ليخبره بأمر

هذا المسجد، ونزل قوله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فأرسل عليه السلام من أصحابه من حرقه وهدَمه[1].

فيجب على المسلمين عامة، وعلى أهل الفضل من علماءَ ودعاةٍ ومصلحين، وأهلِ خير خاصة، أن يكونوا على حذر من مساجد الضِّرار، والأمر ليس مقصوراً على المساجد فحسب، لأن مسجد الضرار مثال للأعمال التي ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبَلِهِ العذاب، فقد يكون مسجداً أو دار نشر أو موقعاً على الشبكة العنكبوتية، أو مشروعاً خيرياً إلى غير ذلك، ومن أخطر هذه المساجد ما يقام من مؤتمرات مشبوهة ويُدعى إليها أهل الخير والصلاح والعقيدة الصحيحة، فلا ينبغي أن نُخدع بمثل هذه المؤتمرات، ولا ينبغي أن نبحث عن تأويلات، لأن بعض أهل الخير يجتهد ويذهب بنية الإصلاح أو قول كلمة الحق، لكن أصحاب هذه المؤتمرات لا يريدون من دعوتهم إلا الحصول على توقيع حضور يضفي عليهم المشروعية ويعينهم على تحقيق

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٠.

مآربهم، مآرب أهل مسجد الضرار، وقد لا تتاح الفرصة للداعية لقول ما يريد، أو قد يقول فُيتجاهل كلامه، ولا يُبرز في وسائل الإعلام إلا حضوره فحسب، فينبغي ألا ننسى قول عمر رضي الله عنه: «لَسْتُ بِالْخِبِّ وَلَا يَخْدَعُنِي الْخِبُّ»(١)، فالمنافقون الأوائل أرادوا أن يحصلوا على أعلى مؤهلات المشروعية بصلاة النبي ﷺ في مسجدهم، وكذلك مَنْ خلفهم اليوم، يحاولون توريط أهل الخير والصلاح بجعلهم واجهة يروجون منها مشاريعهم، مشاريع الضرار والتفريق بين المؤمنين، وقد بين الله عز وجل ما يجب على المؤمنين حيال ذلك فقال: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، فهذا قطع لباب التأويل بالكلية، ثم بيَّن سبحانه البديل الواجب عن القيام في مسجد الضرار فقال: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾، إذاً فالمشاريع التي يجب أن تُدعم، والمؤتمرات التي ينبغي أن تُحضر، إنما هي التي أسَّسها أصحابها على التقوى من أول يوم، فهذه أحق بالقيام فيها، وعليها، ودعم أصحابها.

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ١/ ١٣.

وفي قوله تعالى: ﴿ ضِرَارًا ﴾ ﴿ وَكُفْرًا ﴾ ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ بيان لأصول شر أربعة، ولذلك يقول العلماء: إن المشاريع التي تتخذ للضرار قد تجتمع فيها الأمور الأربعة التي اجتمعت في مسجد الضرار، وقد يكون فيها واحد، فهذا كفيل للحكم عليها بالهدم، وليس بالضرورة أن يكون الهدم حسياً، بل قد يكون معنوياً بإيقاف المشروع أو تغيير إدارته، ويُرجع في كلِّ ذلك إلى أهل العلم، وأولي الأمر، فيسعى أهل الخير عند أهل العلم، وعند المسؤولين حتى تُلغى مثل هذه المشاريع بعد إقامة البينة.

وإن من أعظم أهداف المنافقين ما ذكره ربنا جل وعلا في قوله: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وللأسف فإن بعض المسلمين يقع في ذلك دون أن يشعر؛ بسبب الغلو في التبديع والتفسيق والتحذير من إخوانه بالباطل، فيوافق عمله عمل المنافقين-نسأل الله العافية- فيفسد من حيثُ أراد الإصلاح، وهذا من ثمرات الانحراف المنهجي المشؤومة.

وفي السنوات الأخيرة كثيراً ما نسمع عن مثل ذلك في أنحاء مختلفة من العالم، حيث يكون المسلمون أقلية متحدة متعاضدة، ثم إذا دخل إليهم هذا الانحراف تفرقت كلمتهم، وضعفت قوتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [الأنفال:٤٦]، بل إن الأمر قد لا يقف عند هذا الحد، حيث يكون فتنة لبعض حدثاء العهد بالإسلام فيرتدوا عن دينهم، وقد أخبرني عن مثل ذلك أخ مسلم من البرازيل، فمن يبوء بإثم هؤلاء؟

ثم ذكر سبحانه من صفات أهل النفاق والضِّرار فقال: ﴿ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾، فهم يريدون أن يدفعوا عن أنفسهم كلَّ تهمة فيلجؤون للحَلف والمواربة والمخادعة، خَشية أن يطَّلع الناس على حقيقة نواياهم الخبيثة، وكذلك أصحاب المشاريع المشبوهة، يحاولون تزيين مشاريعهم في عيون أهل الخير بكلِّ وسيلة.

وفي قوله تعالى عن أهل مسجد التقوى ﴿ فِيهِ رِجَالٞ ﴾ مدح لمن اتصف بصفات الكمال من الرجال والنساء، وليس

مدحاً لجنس الرجال فحسب، فالمسجد ليس قاصراً عليهم وإن كانوا هم الأغلب.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ حضٌّ للمؤمنين كي يقيموا مشاريعهم، ومؤسساتهم على أسس سليمة، وقواعد قوية من تقوى الله وطلب رضوانه، فهذه هي التي تبقى وتدوم، وهي التي تكون ذخراً لأصحابها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وأما ما أُسِّسَ على غير هدىً وتقوى من الله فقد بيَّن ﷻ عاقبته فقال: ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفي هذا تسلية للمؤمنين بأن مصير هذه المشاريع إلى انهيار ولو عاشت ردحاً من الزمن، ولو كان يظهر للعيان أنها مشاريع ومؤسسات قوية، فهي كالسفينة التي تطفو على سطح البحر وتظهر بحلَّة جميلة، بينما السوس ينخر في داخلها، فمصيرها إلى الغرق ولو بعد حين.

وفي المقارنة بين المسجدين نكتة دقيقة وهي: أنَّ هذين المسجدين متشابهان في الظاهر، بل إن مسجد الضرار

ومؤسسات الضرار قد تكون أحكم بناء وتجهيزاً، لكن الحكم إنما هو للحقائق الباطنة، ولهذا قد يقف المصليان في الصف الواحد ومنكب هذا في منكب الآخر، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب، وربما كانت صلاة أحسنهما في الظاهر باطلة، وقد قيل:

صلَّى المصلي لأمر كان يطلبه

فلما انقضى الأمر لا صلَّى ولا صامَ

والشيخ السعدي-رحمه الله- يذكر في تفسير الآية قاعدة مهمة فيقول: «ومنها أنَّ المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد قباء؛ حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[1]»

وهذه الأسس التي تُبنى عليها المساجد والمشاريع، يجد أهل الخير

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٣٥١.

والصلاح أثرها على قلوبهم، وهو أمر مشاهد محسوس حيث يشعر المرء بانشراح الصدر والسكينة والخشوع في مسجد ما لأنه أسس على التقوى، بينما يشعر بالضيق والانقباض في آخر، حيث تكون المحاضرات والدروس للتفريق، وللكلام في لحوم العلماء وفي الدعاة، حتى ولو لم يكن علم بهذه الحقيقة قبل ذلك.

الوقفة الحادية عشرة:

يوم الجمعة وفضله

بعد أن تحدثنا عن العبادات وأثرها على صاحبها في نفسه وفي محيط دعوته، يحسُن بنا أن نتحدث عن نماذجَ من هذه العبادات، وربما كان من المناسب أن نتحدَّث عن يوم الجمعة ببيان فضله، وما يُشرع فيه من العبادات، لكونه موسماً للعبادة يتكرر كلَّ أسبوع.

إن يوم الجمعة يوم عظيم خصَّ الله -جل وعلا- به هذه الأمة، كما قال عليه السلام: «**أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة**»[1]، وكثير من المسلمين لا يعرفون من يوم الجمعة إلا صلاة الجمعة، وبرغم أنها أعظم شعائر هذا اليوم، إلا أن أعماله وفضائله لا تقتصر عليها، وقد ذكر العلماء من

---

(١) مسلم ٢/ ٥٨٦ (٨٥٦).

خصائص هذا اليوم ما يزيد عل الثلاثين فضلاً[1]، نقتصر هنا على ذكر بعضها:

أولاً: يقول النبي ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خُلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[2].

ثانياً: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل) السجدة و (هل أتى على الإنسان)»[3].

وها هنا تنبيهات ثلاثة:

الأول: أن قراءتهما ليست على سبيل الوجوب، بل لأن النبي ﷺ كان يداوم على قراءتهما في أغلب الأحيان، ولذلك ذكر بعض العلماء أنه لا مانع أن يقطع الإمام هذه المداومة أحياناً حتى لا يفهم بعض الناس أنها واجبة، لكن الأصل هو قراءتهما يوم الجمعة.

---

(١) أنظر زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٦٣-٤١٠

(٢) مسلم ٢/ ٥٨٥ (٨٥٤).

(٣) البخاري ١/ ٣٠٣ (٨٥١)، مسلم من حديث ابن عباس ٢/ ٥٩٩ (٨٧١).

الثاني: ينبغي ألا يفرِّط الأئمة في هذه السنة، لأن بعضهم قد لا يقرأ بها في صلاة الفجر طوال العام، وهذا تفريط قبيح.

الثالث: بعض الأئمة يظن أن المقصود من قراءة سورة السجدة هو سجود التلاوة فيقرأ سوراً أخرى فيها هذا السجود، وهذا خطأ، بل قراءة هاتين السورتين بعينهما هو المقصود، لما فيهما من تذكير بيوم القيامة وما بعده وفي هذا مناسبة لما بينه عليه السلام من كون الساعة لا تقوم إلا يوم الجمعة، ففي قراءتهما في أول النهار تذكير بذلك للاستعداد له بالعمل والعبادة.

ثالثاً: كثرة الصلاة على النبي ﷺ لقوله عليه السلام: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخةُ، وفيه الصعقةُ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ»[1]، وبرغم أن الصلاة على النبي ﷺ مشروعة في كلِّ وقت وحين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب]، وبرغم أن لهذه الصلاة أجراً عظيماً كما قال عليه السلام: «من

(١) سنن أبي داود ١/ ٣٤٢ (١٠٤٧)، سنن النسائي ٣/ ٩١ (١٣٧٤) سنن ابن ماجة ١/ ٥٢٤ (١٦٣٦) جميعهم عن أوس بن أوس، والحديث صححه الألباني.

صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشراً»[1]، إلا أن الإكثار من الصلاة عليه -بأبي هو وأمي- يتأكَّد يوم الجمعة، بل ورد فضل ذلك ليلة الجمعة أيضاً في قوله عليه السلام: «**أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن صلَّى عليَّ صلاةً، صلَّى الله عليه عشراً**»[2]، فهذه الصلاة من أعظم القُربات، ومع ذلك فإن من المسلمين من يتهاون فيها، وفي هذا نوع من الجفاء لا ينبغي أن يقع فيه المسلم، وبخاصة من كان من أهل هذه البلاد التي مَنَّ الله عليها بحمل لواء دعوة الناس للتوحيد، واتّباع السنة، وترك البدعة، لأن أهل البدع والغلو في النبي ﷺ يشنِّعون على هذه الدعوة المباركة بالكثير من الأباطيل ليصدوا الناس عن الحق، ومن ذلك قولهم: إن أهل هذه البلاد عندهم جفاء للنبي ﷺ فُيخشى على من وقع في هذا التقصير في الصلاة على النبي ﷺ أن يكون سبباً في الصدَّ عن سبيل الله عز وجل دون أن يشعر.

---

(١) مسلم ١/ ٢٨٨ (٣٨٤).

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٣/ ٢٤٩ (٥٧٩٠)، والحديث حسنه الألباني في صحيحه رقم (٢/ ١٤٠).

وأذكر هنا قصة جميلة، فقد جاء أحد الإخوة من طلاب العلم للعمل مدرساً في المملكة، وكان يسمع في بلده أن أهل هذه البلاد عندهم جفاء للنبي ﷺ فيقول: إنه خرج بعد صلاة الفجر في يوم من الأيام ولعله يوم الجمعة ليشتري، بعض الأغراض، فوجد دلَّالاً[1] عامياً يبدأ يومه قائلاً: «لا إله إلا الله، صلُّوا على النبي ﷺ» فقال الأخ في نفسه: أهؤلاء لا يحبون النبي ﷺ وهم يستفتحون يومهم بالصلاة عليه؟ لقد كذب -والله- من اتهمهم بهذه التهمة.

فهذا الدلاَّل البسيط قد نفى عن البلد كلِّه تهمة شنيعة، فينبغي لنا التنبه لمثل ذلك.

رابعاً: الاغتسال، وقد اختلف العلماء: هل غسل يوم الجمعة واجب، أو سنة؟

وقد احتج القائلون بالوجوب بقوله عليه السلام: «**الغسل يوم الجمعة واجب على كلِّ محتلم**»[2]، ولكن قال ابن قدامة رحمه الله:

---

(١) هو من يتولى بيع البضائع بالمزايدة بين المشترين، والقصة وقعت في سوق بيع الخضار في مدينة من مدن المملكة.

(٢) البخاري ١/ ٢٩٣ (٨٢٠)، مسلم ٢/ ٥٨٠ (٨٤٦).

«وليس ذلك بواجب في قول أكثر أهل العلم»[1]، ومعنى واجب في الحديث ليس هو الوجوب الاصطلاحي بل إنه متأكد، وهذا هو الراجح، بدليل قوله عليه السلام: «**من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل**»[2]، وبدليل فعل عثمان رضي الله عنه حيث دخل المسجد وعمر رضي الله عنه يخطب فقال عمر: «أية ساعة هذه؟ فقال: ما هو إلا أن سمعتُ النداء وما زدتُ على أن توضأتُ. قال: والوضوء أيضاً وقد علمت رسول الله ﷺ أمر بالغسل؟»[3]، قال الشافعي- رحمه الله-، «فَلَمَّا لم يتركْ عثمان الصلاة للغسل، ولَمَّا لمْ يأمره عمر بالخروج للغسل، دلَّ ذلك على أنهما قد عَلِمَا أن أمْرَ رسول الله بالغسل على الاختيار لا على أنْ لا يُجْزِئَ غيره»[4]، وهذا الغسل يكون بعد صلاة فجر يوم الجمعة.

---

(١) المغني ٢/ ١٩٩.

(٢) سنن الترمذي ٢/ ٣٦٩ (٤٩٧) وصححه الألباني.

(٣) سنن الترمذي ٢/ ٣٦٦ (٤٩٤) ، وصححه الألباني.

(٤) الرسالة ١/ ٣٠٢.

خامساً: التطيب والاستياك، لقوله عليه السلام: «الغسل يوم الجمعة واجب على كلِّ محتلم، وأن يستنَّ، وأن يمسَّ طِيباً إن وجَد»[1]، ومعنى يستنَّ: يستاك.

سادساً: التبكير إلى الصلاة، وقد جاء فيها فضل عظيم جداً حيث قال عليه السلام: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الثالثة فكأنما قرَّب كبشاً أقرنَ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[2]، وقد اختلف العلماء في وقت بداية هذه الساعات، والذي ترجَّح لدي: أن بدايتها من ارتفاع الشمس إلى خروج الإمام فتقسم الساعات بينهما، ومن المؤسف في بعض المساجد أن الكثير من الناس يفرِّطون في هذا الفضل، فتجد الإمام يصعد المنبر ولما يكتمل صف أو صفان، فإذا انتهى من خطبته تجد المسجد قد

---

(١) البخاري ١/ ٣٠٠ (٨٤٠).

(٢) البخاري ١/ ٣٠١ (٨٤١)، مسلم ٢/ ٥٨٢ (٨٥٠).

امتلأ عن آخره، والعجيب أنه حال انتهاء الصلاة يسارعون إلى الخروج في أقصر وقت، وكأن دخول المسجد وحضور الخير عبء ثقيل ينبغي التخلُّص منه.

ومن باب العدل والإنصاف، فإننا نجد في مساجد أخرى مسارعة إلى الخيرات من أهل المسجد، إذ يحضرون من بعد صلاة الفجر، ويبقون في تلاوة للقرآن وذكر ودعاء إلى وقت صلاة الجمعة، حتى إن منهم من يختم القرآن قبل دخول الإمام كما ثبت عن الشيخ محمد بن قاسم -رحمه الله - أو يقرأ الكثير منه خلال مكثه هذا، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

سابعاً: لبس الحسَن من الثياب، لقوله ﷺ: «ما على أحدكم إن وجد، أو ما على أحدكم إن وجدتم أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[1].

ثامناً: الإنصات، قال ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»[2]، وقال: «ومن مسَّ الحصى

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٣٥٠ (١٠٧٨)، وصححه الألباني.

(٢) البخاري ١/ ٣١٦ (٨٩٢)، مسلم ٢/ ٥٨٢ (٨٥١).

فقد لغا»[1]، وقد سأل رجل أُبيّاً رضي الله عنه والنبي ﷺ يخطب عن سورة متى أُنزلت فلم يجبه، ثم قال له بعد الصلاة: «ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت. فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وأخبره بالذي قال أُبَي، فقال رسول الله ﷺ: صدق أُبي»[2].

وفيما سبق دلالة عظيمة على عناية الإسلام بهذه الخُطبة، حيث حض المسلمين على التزين والتطهر والتطيب والتبكير والإنصات، فينبغي للخطباء أن يتنبهوا لذلك، وألا يتهاونوا في إعداد الخطبة والتحضير لها، فهناك من الخطباء من يفرِّط في هذا الأمر تفريطاً قبيحاً، والله سائلهم عن ذلك بلا ريب.

تاسعاً: قراءة سورة الكهف، للأثر: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**»[3]، وهذا له حكم المرفوع، وقد صححه بعض أهل العلم مرفوعاً.

---

(١) مسلم ٢/ ٥٨٧ (٨٥٧).

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٣٥٢ (١١١١)، وصححه الألباني.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ٣/ ٢٤٩ (٥٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٠.

عاشراً: مشروعية الصلاة للرجال والنساء، أما الرجال فوجوباً وأما المرأة فصلاتها في بيتها خيرٌ لها.

حادي عشر: أنه ليس قبلها وقت كراهة بخلاف الصلاة وقت الزوال باقي الأيام، وهو قول الشافعي حيث قال: «... وهذا مثل نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة؛ لأن من شأن الناس التهجير للجمعة والصلاة إلى خروج الإمام»[1]، وهو الراجح.

ثاني عشر: يُسن قراءة سورة الجمعة والمنافقون في صلاة الجمعة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة»[2]، أو يُقرأ فيه بسبِّح والغاشية فقد «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبِّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية»[3]، وهذا مما لا يراعيه الكثير من الأئمة، كما أن بعضهم قد يقسم إحدى هذه السور فيصليها في الركعتين وهذا لم يرِد عنه ﷺ بل هو بخلاف سنته.

---

(١) الأم ١/ ٢٦٥.

(٢) مسلم ٢/ ٥٩٧ (٨٧٧).

(٣) مسلم ٢/ ٥٩٨ (٨٧٨).

ثالث عشر: أنَّ فيها ساعة لا يوافقها عبد قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه من خيري الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «**فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله – تعالى- شيئاً إلا أعطاه إياه. وأشار بيده يقلِّلُها**»[1]، أي: أن مدتها قصيرة، وقد اختلف العلماء في تحديد وقتها، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة**»[2]، وهذا مما استدركه الدارقطني على مسلم –رحمه الله- فصحح أنه موقوف على أبي بردة، وقال غيره بل على أبي موسى، فهذا هو القول الأول، والقول الثاني وهو الأرجح: أنها بعد صلاة العصر إلى مغيب الشمس، لحديث: «**يوم الجمعة ثنتا عشرة «يريد ساعة» لا يوجد مسلم يسأل الله ﷻ شيئاً إلا آتاه الله ﷻ فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**»[3]، ومدتها يسيرة كما سبق فقد تكون قبل المغيب بنصف ساعة أو ثلث

---

(١) البخاري ١/ ٣١٦ (٨٩٣)، مسلم ٢/ ٥٨٢ (٨٥٢).

(٢) مسلم ٢/ ٥٨٤ (٨٥٣).

(٣) سنن أبي داود ١/ ٤٣٢ (١٠٤٨)، وصححه الألباني.

ساعة؛لأنه أشار بيده يقللها فينبغي اغتنام هذه المدة اليسيرة، وقد سمعت بأذني أحد طلاب العلم يقول: دوامي نصف ساعة في الأسبوع، يعني هذه الساعة فلا يتركها إلا لضرورة، يقول: ما أذكر أني سألت الله شيئاً إلا أعطاني إياه عاجلاً أو آجلاً أو عوضني خيراً مما سألت، وهذا ما رأيته من أمور الدنيا، فكيف بأمور الآخرة. ويذكر من ذلك أشياء عجيبة وعظيمة حصلت له في حياته، وهذا لأنه يدعو واثقاً وصادقاً ومؤمناً بما في الحديث، والمقصود بقوله: «قائم يصلي» أي: يدعو ويواظب على الدعاء ولو كان جالساً؛ لأنه إذا كان في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة وإن تيسر الدعاء وهو يصلي صلاة مشروعة فهو أرجى؛ كمن يصلي تحية المسجد، أو سنة الوضوء. وأغرب من حمله على أن يكون واقفاً، وليس هذا هو المراد. لأن الوقوف في الصلاة ليس مكان دعاء.

رابع عشر: أنه لا يجوز السفر بعد النداء الثاني إلا للضرورة، كأن لا تكون هناك سوى رحلة واحدة ويكون إقلاعها في هذا الوقت، فهذا يستثنيه العلماء، وكذلك لا يجوز

البيع، ولا يجوز عقد النكاح، وكلُّ هذا لبيان أهمية هذه الصلاة وضرورة المحافظة عليها.

خامس عشر: أن هذا اليوم هو اليوم الذي ادخره الله-جل وعلا-لهذه الأمة كما في الحديث الصحيح: «**ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة، هدانا الله له وأضل الناس عنه، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، هو لنا، ولليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد**»[1]، فهم سبقونا زمناً، وسبقناهم فضلاً، كما في حديث: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[2]، وهذا مِن مَنِّ الله وفضله على هذه الأمة، والله يؤتي فضله من يشاء.

سادس عشر: مع ما لهذا اليوم من فضائل، ومع تنوع وكثرة العبادات فيه، فقد جاء النهي النبوي عن خصه لهذا الفضل بعبادة لم تُشرع، كما قال عليه السلام: «**لا تختصُّوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصُّوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلاّ أن يكون في صوم يصومه أحدكم**»[3]، كمن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، أو

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٥١٨ (١٠٧٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) البخاري ١/ ٢٩٩ (٨٣٦)، مسلم ٢/ ٥٨٥ (٨٥٥).

(٣) مسلم ٢/ ٨٠١ (١١٤٤).

يصوم عاشوراء أو يوم عرفة فوافق يوم جمعة، وجاء استثناء آخر في قوله عليه السلام: «لا يصومَنَّ أحدُكم يوم الجمعة إلاّ يوماً قبله أو بعده»[1]، فإن كان هذا النهي في يوم الجمعة الذي لا يوجد في الأسبوع أفضل منه فما دونه أولى بذلك، فهو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، وهذا يتسق مع القاعدة العامة من كون العبادات توقيفية، فلا يُعبد الله عز وجل إلا بما شرع، ولا تُخص الأماكن الفاضلة والأوقات الفاضلة بعبادات مخترعة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[2]، أي: باطل مردود عليه غير مقبول.

---

(١) البخاري ٢/ ٧٧٠ (١٨٨٤)، واللفظ له، مسلم ٢/ ٨٠١ (١١٤).

(٢) البخاري تعليقاً ٢/ ٧٥٣ (باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع)، مسلم ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨).

الوقفة الثانية عشرة:

أثرُ العبادة في الثَّبات عند الفتن

قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ومن المتقرِّر عند أهل السُّنَّة أنَّ الإيمان يزيد بالطاعة والعمل الصالح، وأنَّ العباداتِ من جملة شُعبه، فلا غرو أن تكون العبادةُ من أعظم وسائل الثَّبات عند الفتن، وما ذلك إلا لأنّ العبادة هي الوسيلة الشّرعيَّة الأساسيَّة التي تتحقَّق بها زيادة الإيمان في القلوب، وكلَّما ازداد إيمانُ المرء ازداد قرباً من ربّه سبحانه، حتّى يحظى بمعيَّته تعالى الخاصة لعباده المؤمنين، التي لا يحظى بنيلها إلا خاصة عباده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]، وإذا حظي العبد بمعية ربه فعندئذٍ يتحقّق له الثّبات في فتن الدنيا والنجاة من فتنة القبر وعذاب الآخرة، وإذا كانت العبادةُ سببَ

نجاةٍ من فتنة القبر على عظمها، فحريٌّ بها أن تكون سبباً للنَّجاة من فتن الدنيا على اختلافها، فإنَّ النجاة من تلك لا تكون إلا بالنَّجاة من هذه.

وقد صحَّ عند مسلم من حديث معقل بن يسار -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العِبَادةُ في الهَرْجِ كهِجْرةٍ إليَّ»[1]، ولا غروَ فإنَّ الهجرة مانعةٌ من الفتنة في الدِّين الناجمة عن الإقامة بين أظهر المشركين، فهي فرارٌ بالدين من دار الشِّرك إلى دار الإسلام، وكذلك العبادة حالَ الهرج وهو القتل واختلاط الأمور وأكثر ما يكون في الفتن، فمن تعبَّد لربه اعتصم به ﷻ منها، والنَّفس إن لم يشغلها العبد بالطاعات والأعمال الصالحة النافعة، خُشي أن تشغله بالفتن وتوقعه فيها فيخوض غمارها فيهلك مع الهالكين.

وهذه العبادة التي هي منجاةٌ من فتن الدنيا والآخرة، تشمل العبادات الخاصة من نحو الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجّ،

---

(١) صحيح مسلم (٧٥٨٨).

وتشمل كذلك العبادات متعدِّية النفع، كالدعوة إلى دين الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد كان الأنبياء والصّالحون يعرفون مكانة الصّلاة الكبيرة بين العبادات، فكانوا كثيراً ما يفزعون عند نزول البلاء أو الشدة إلى الصّلاة وما تتضمّنه من الدُّعاء، فقد صحَّ عن صهيب -رضي الله عنه-، أنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى همس شيئاً لا نفهمُه... الحديث" وفيه: «قال: وكانوا يفزعون إذا فزعوا إلى الصَّلاة»[1]، يعني الأنبياء.

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند جيد عن عليٍّ في يوم بدر: "ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلاّ رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٣٣، ٦/ ١٦، وهو عند ابن حبان في صحيحه ٥/ ٣١١ (١٩٧٢)، والبزار في مسنده ٦/ ١٦، والبيهقي في الشعب ٣/ ١٥٥، وانظر تهذيب الآثار ٣/ ٩١ وما بعدها، ورواه غيرهم وسنده لاغبار عليه، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، (٢٤٥٩)، وقال المقدسي في المختارة: إسناده صحيح ٨/ ٦١، وقد أعلت هذه الزيادة بالإدراج لكن في معناها آثار وأخبار تشهد لها بل في معناها آيات محكمة.

يُصلي ويبكي حتى أصبح"[1].

وقد جاء ذكرُ صلاته مع دعائه ﷺ حين التقاء الصَّف، عن عبدالله ابن مسعود قال: "لما التقينا يوم بدر، قام رسول الله ﷺ يُصلِّي فما رأيتُ ناشداً ينشد حقاً له أشدَّ من مناشدة محمد ﷺ ربَّه، وهو يقول: اللَّهمَّ إني أنشدك وعدَك"، ثم ذكر الدُّعاء الثابت المشهور[2].

---

(١) المسند ١/ ١٢٥، وقد رواه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٥٢ (٨٨٩)، وابن حبان في صحيحه أيضاً ٦/ ٣٢ (٢٢٥٦)، والطبري في تاريخه ٢/ ٢٣،وهؤلاء من طريق عبدالرحمن بن مهدي عن شعبة، وقد رواه الإمام أحمد أيضاً من طريق جعفر بن محمد عن شعبة في المسند أيضاً ١/ ١٣٨، وكذلك النسائي في السنن الكبرى ١/ ٢٧٠ (٨٢٣) وقد حسن ابن حجر إسناد النسائي في الفتح ١/ ٥٨٠ وصحح الأثر الألباني كما في كما في صحيح الترغيب والترهيب (٥٤٥) وكذلك الوادعي في صحيح الجامع الصحيح ٢/ ٤٦٦، ورواه ابن مهدي أيضاً عن الثوري به كما في الحلية ٩/ ٢٥ وقد أشار أبونعيم إلى تفرده بهذا الطريق. غير أن المقدسي أورده في الأحاديث المختارة ٢/ ١٤٨ (٥٢٠) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان كذلك بألفاظ مقاربة، وهو محفوظ من طريق شعبة عند أحمد هذا.

(٢) الكبرى ٦/ ١٥٥ (١٠٤٤٢)، رواه النّسائي من طريق حفص بن عمر عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ابن مسعود وهذا السند جيد غير أن ذكر الصلاة لم يرد عند من ساق حديث ابن مسعود من طريق الأعمش وغيره إلاّ من طريق عمر بن حفص، فلم يرد ذكر الصلاة عند التقاء الصف مع الدعاء إلاّ فيه والله أعلم، وأياً ما كان فقد ورد عند مسلم ٣/ ١٤٠٤ (١٧٧٩) من حديث أنس ما يفيد صلاة النبي ﷺ يوم بدر.

وكذلك روى البخاريُّ وغيره عن أم سلمة، قالت: استيقظ النبيُّ ﷺ ذات ليلة، فقال: «سبحانَ الله، ماذا أُنزلَ الليلة من الفتن، وماذا فُتح من الخزائن، أيقظوا صواحباتِ الحُجَر، فرُبَّ كاسية في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»[1]، وفي رواية في البخاري: "حتى يُصلِّين"، قال ابن حجر: "وفي الحديث استحبابُ الإسراع إلى الصَّلاة عند خشية الشَّرِّ، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، وكان ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزِعَ إلى الصلاة، وأمر من رأى في منامه ما يكرهُ أن يصلِّي"[2]، وما أشار إليه من أمر الصَّلاة عند الرؤيا التي يكره ثابتٌ عند مسلم من حديث أبي هريرة وفيه: "فإذا رأى أحدُكم ما يكره؛ فليقُم فليُصلِّ"[3]، وفي أثر عبيد الله بن النضر، قال: حدَّثني أبي قال: "كانت ظلمةٌ على عهد أنس"، قال: "فأتيت أنساً فقلت: يا أبا حمزة! هل كان يُصيبكم مثلُ هذا على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: معاذَ الله، إن كانت الريحُ لتشتدُّ فنبادر إلى المسجد مخافةَ

---

(١) صحيح البخاري (١١٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/ ٢١١، وينظر التمهيد ٢٣/ ٤٤٩، وشرح الزرقاني ٤/ ٣٤٢.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٦٣).

القيامة"[1]، وجاء عن علقمة أنه قال: «إذا فزعتم من أفق من آفاق السماء؛ فافزعوا إلى الصَّلاة»[2]، وجاء أن ابن عباس نُعيَ إليه أخوه -وهو في مسير- فاسترجع وتنحَّى عن الطريق ثم صلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته، وهو يقولُ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، ولهذا ونحوه قال الآجُري وجماعة فيمن أصيب بمصيبة: "يصلي ركعتين، وهو متجه"[3].

والمقصود أن الصّلاة والدُّعاء وكذلك قراءة القرآن من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٨٣ برقم (١١٩٦)، وأبو داود في السنن (١١٩٦)، والبيهقي في الكبرى ٣/ ٣٤٢ برقم (٦١٧١)، والضياء في المختارة (٢٧٠٥)، ولعله حديث حسن كما قال النووي في الخلاصة ٢/ ٨٦٥.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢١٩ (٨٣١٨)، ٧/ ٣٢٢ (٣٦٤٩٩)، والسند صالح إن شاء الله، وقد جاء عن ابن مسعود من طريق لايحتج بها تنظر السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٤٣ (٦١٧٣)، وروي مرفوع أيضاً ينظر الكامل لابن عدي ٢/ ٤٠٤، والصواب وقفه على علقمة كما ذكر ابن رجب في فتح الباري له ٦/ ٣٢٨. ولكن روي عن النبي ﷺ ما يفيد تركه للصلاة في بعض تلك الحال، فقد روى الإمام أحمد بسند جيد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً من أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه، فإن كشفه الله حمد الله، وإن مطرت قال: اللهم صيبا نافعاً» ٦/ ١٩٠، وقد صححه الألباني كما في صحيح ابن ماجة (٣١٣٧).

(٣) الفروع لابن مفلح ٢/ ٢٨٥.

أعظم ما يُستعان به على الثَّبات عند الفتن، ومردُّ ذلك إلى أنَّ الإقبالَ على هذه العبادات، يورث العبد خشيةً وإنابةً وقرباً من الله ﷻ، وظفراً بمعيَّته الخاصَّة بالمؤمنين، وهو الأثر الّذي يتحقّق كذلك عند أداء العبادات الأخرى من صدقة وزكاة وصيام وحجٍّ وعمرة:

وقد ورد في الصّدقة والزكاة قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] ، قال بعض المفسرين: «تُنمِّيهم وترفعُهم عن خسيس منازل أهل النِّفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص» (١)، ومثلُ هؤلاء جديرون بأن يُيسِّرهم الله تعالى لليُسرى، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ [الليل: ٥-٧]، ومن ذلك تيسيرُ الثبات له عند البلاء أو الفتنة، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في "مسنده" عن النَّبيِّ ﷺ قال: «وَالصَّدَقَةُ تَمْنَعُ مِيتَةَ السَّوْءِ»(٢).

---

(١) تفسير الطبري، ١٤/ ٤٥٤.

(٢) مسند الإمام أحمد، ٢٥/ ٤٨٧ وفيه ضعف.

وفي الصيام جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة، ١٨٣] أي: عسى أن تتحقّق لكم بالصيام صفة التّقوى، التي تجعل صاحبها في مأمنٍ وتُقيةٍ من كلّ مكروه قد يُصيبه، وكما قال الرسول ﷺ: "الصّيام جُنّة"[1]، وروي عن أبي هريرة: "جُنَّةٌ وحصنٌ حصينٌ من النَّار"، وللنَّسائيِّ من حديث عثمان بن أبي العاص: "جُنَّةٌ كجُنَّة أحدكم من القتال"[2]، وما كانَ جُنَّةً من عذاب النّار، فحري أن يكون جُنّة وحمايةً ووقايةً من فتن الدّنيا.

وفي الحجِّ جاء قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾ [البقرة: ٩٧]، والحجُّ والعمرة هما الجهاد الّذي لا قتالَ فيه، روي عن عائشة بنت الصّدّيق -رضي الله عنهما-، قالت: «قلت يا رسول الله على النِّساءِ جهاد»؟ قال: «نعم، عليهنَّ جهادٌ لا قتالَ فيه: الحجُّ والعمرة»[3] وتربية النفس في الحج على

---

(١) صحيح البخاري (١٨٩٤).

(٢) سنن النّسائي (٢٢٣٠).

(٣) سنن ابن ماجة (٢٩٠١)، وصححه الألبانيُّ، وانظر صحيح البخاري (١٥٢٠).

بذل الجهد ومجاهدة النّفس والهوى من أكبر وسائل الثَّبات عند الفتن، فهي الّتي تصقل إيمان المرء، وترقى به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩]، والجهاد في الآية المذكور أشمل من مفهومه الخاص، بدليل أن السورة مكية، وفي الحجِّ خروجٌ عمّا اعتاده المرء من حياةٍ، وهجرةٌ إلى الله ﷻ وجهادٌ ومجاهدة لدواعي النّفس والهوى، فيعود المؤمن بعدها وقد تخفَّف من كثيرٍ من الأوزار والآصار والأغلال التي كانت تثقّله، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَينَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةَ»(١)، ومن كانت عاقبته الجنة فقد سلك درب السلامة.

فهذه العبادات التي هي أركانٌ للدّين كلّه، تشتدُّ أهمّيتها في أحوال الفتنة والهرج، ويكون القائم بها المحافظ عليها، كالمهاجر إلى الله ورسوله، مصداقاً للحديث السابق ذكره: «العِبَادةُ في الهَرْجِ كهِجْرةٍ إليَّ».

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (١٧٧٣)، ومسلم: (٣٣٥٥).

ومن المحمودِ للعبدِ عند حصول الاختلاف والهرج، وبعد أن يُقيم شعب الإيمان في نفسه وحياته، بدءاً بأركان الإسلام الكبار دون إغفال لغيرها مما يمكنه حتَّى إماطة الأذى عن الطريق، من المحمود له أن يسعى لدعوة الآخرين إلى هذا الخير الّذي وجده، مشتغلاً بالأعمال الدعويَّة البنَّاءة لسائر شعب الإيمان، وذلك هو المقام الرّفيع للمسلم في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] يقول ابن جرير: "ومن أحسنُ أيُّها الناس قولاً ممن قال: ربنا الله، ثم استقام على الإيمان به، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به من ذلك"(١)، فالدَّعوة وعملُ الخير وقضاء حوائج النّاس عبادةٌ فيها بذلٌ وعطاءٌ للآخرين، فدخلت بذلك في مفهوم الصّدقة والإنفاق، يقولُ الرسول ﷺ: «يُصبحُ على كلِّ سُلامَى من أحدكم صدقة: فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تحميدةٍ

(١) تفسير الطبري، ٢١/ ٤٦٨.

صدقة، وكلُّ تهليلةٍ صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضُّحى»[1]، وكما أنَّ الصدقة تُطهر مال المؤمن وتزكِّيه، فكذلك الدَّعوة وعمل الخير تُطهّر المرء وتُزكِّي عمله وتزيده قوَّةً وثباتاً.

وإذا تأملت أحوال أهل الثبات الذين ضربوا في ثباتهم على الحق أروع الأمثال وجدت العبادة حاضرة في حياتهم وتأمل ذلك في أحوال الأنبياء، ثم أتباعهم، ومن جملتهم أئمة الهدى في هذه الأمة، ومن الشواهد قصة خبيب رضي الله عنه، وثباته العجيب عند قلته وهو أول من سن الصلاة قبل القتل، وتأمل ثبات الإمام أحمد ابن حنبل في المحنة، واقرأ ما ذكر في ترجمته من شأن عبادته تعجب كيف صبر عليها! وهذا شيخ الإسلام كان له من التأله ما قد عرفت في ترجمته، قال ابن القيم رحمه الله: "حضرتُ شيخَ الاسلامِ ابنَ تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال:

---

(١) متّفق عليه.

هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي أو كلاما قريبا من هذا"[1].

وأعرف بعض المعاصرين ممن ابتلي فكانت عبادته من أقوى علامات ثباته عند امتحانه.

فاستعن بالله يا عبد الله على ما أرشدك إليه في فاتحة الكتاب، التي تدعو بها في الخمسة الأوقات، استعن به على العبادة، فصاحبها حري بأن يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق فحادوا عنه، ولا الضالين الذين عمي عليهم، والله المستعان.

---

(١) الوابل الصيب ص٦٣.

الوقفة الثالثة عشرة:

مـــن آفات العبـــاد

إن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وتتنوع الاختبارات والابتلاءات فيها بتنوع أحوال الناس، فيعرض للفقير من الابتلاءات ما لا يعرض للغني، ويعرض للعالم ما لا يعرض للجاهل، ويعرض للعابد ما لا يعرض للغافل، والعكس صحيح كذلك، فيجدر بنا أن ننبه من عقد العزم على السير في طريق الاجتهاد في العبادة إلى عدد من الآفات -على سبيل المثال لا الحصر- التي قد تلحق بعبادته فتجعلها هباء منثوراً أو تقلّل من انتفاعه بها، فتكون حاله كمن قال الله ﷻ فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

الآفة الأولى-الرياء: وهو من أخطر الآفات، وقد سماه النبي ﷺ بالشرك الخفي حيث قال: «الشرك الخفي أن يعمل

الرجل لمكان الرجل»[1]، والرياء ضد الإخلاص، والله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وقال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[2]، والمرائي يتعب جسده بما لا طائل من ورائه بل بما يجر عليه الشقاء يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله ورجل كثير المال؛ فيقول الله للقارئ: ألم أعلِّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما عُلِّمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله بل أردت أن يقال إنّ فلاناً قارىء فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال

---

(١) المستدرك ٤/ ٣٦٥ (٧٩٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢٩).

(٢) مسلم ٤/ ٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

فيقول الله له: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت. وتقول له الملائكة، كذبت. ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال: فلان جواد، فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: في ماذا قُتلت؟ فيقول: أمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت. وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يُقال: فلان جريء، فقد قيل ذاك. ثم ضَرَبَ رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة»[1] ، فوالله لو لم يكن من الوعيد المنفِّر عن الرياء سوى هذا الحديث لكفى، قارئ ومنفق ومجاهد هم أول من تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة ربِّ سلِّم سلِّم!

ولهذا كان من أبي هريرة رضي الله عنه يوم حدَّث بهذا الحديث ما كان، حيث قال لمن سأله ان يحدثه بحديث عن رسول الله ﷺ: «لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ عقلتُه وعلمتُه، ثم نشغ

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٩١ (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

أبو هريرة نشغة فمكث قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح وجهه، فقال: أفعل لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره،ثم نشغ أبو هريرة نشغةً شديدةٌ، ثم مال خارَّاً على وجهه فأسندتُه عليَّ طويلاً، ثم أفاق فقال: [وذكر الحديث][1] !

الآفة الثانية-البدعة: فلئن كانت آفة الرياء آفة باطنة تتعلَّق بحقيقة العمل ومراد صاحبه منه- وهو ما لا يطَّلع عليه إلا الله- فإنَّ آفة البدعة تلحق بظاهر العمل وصورته التي هو عليها، وهي عبادة الله - سبحانه وتعالى- بما لم يُشرَع، أي: بما يخالف سنة النبي ﷺ وهديه، وهذه العبادة لا تُقبل من صاحبها وإن

---

(١) المصدر السابق نفسه.

أخلص فيها النية لله ﷻ كما قال عليه السلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[1] ،وفي لفظ آخر: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2] ، قال النووي رحمه الله: «وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمِهِ ﷺ، فإنه صريح في ردِّ كلِّ البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سُبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئاً، فيحتج عليه بالثانية التي فيها تصريح بردِّ كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سُبق بإحداثها... وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به[3]» .

فلكي يكون العمل مقبولاً عند الله لا بد أن يكون خالياً من هاتين الآفتين: الرياء والبِدعة، وذلك بتحقيق الإخلاص

---

(١) البخاري ٢/ ١٥٩ (٢٥٥٠)واللفظ له، مسلم ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨) بلفظ «منه» بدل «فيه».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٦، وهذا الأخير مما درج أئمة الدعوة عليه كما تشهد بذلك كتبهم وفتاواهم جزاهم الله خيراً.

وهو عمل قلبي باطن، ومتابعة النبي ﷺ والعمل بسنته وهو عمل حسي ظاهر.

الآفة الثالثة-الإعجاب بالعمل: والفرق بين هذه وبين الرياء، أن المرء قد يعمل عملاً لا يريد به إلا وجه الله، ولكن يعرض له أثناء العمل أو بعده شعور بالزهو بما يعمل، فيجد لنفسه فضلاً على خالقه وولي نعمته-والعياذ بالله- أن قام بهذه العبادة، رغم أنه ما قام بها إلا بتوفيق من اللهّ!

من جانب آخر فقد يُعجب المرء بعبادته فيجد لنفسه فضلاً على إخوانه، فيزدريهم ويزدري أعمالهم، وقد حذرنا ربنا ﷻ من مثل ذلك فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم]، فالواجب على العابد أن يحذر من كيد الشيطان ومكره، فيتبرأ من كلِّ حول وقوة إلا من حول الله وقوته، فيعلم أنه ما وقف بين يديه في صلاة أو صيام أو تلاوة قرآن أو تسبيح إلى غير ذلك، إلا بفضل ومنة منه سبحانه، وأنه -جل وعلا-قادر على أن يحول بينه وبين هذه العبادة، بل بينه وبين الإيمان بالكلية كما

قال عز من قائل ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤] وكما قال عليه السلام: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه**»(١)، فينبغي للعابد أن يكون على حذر وخوف دائمين من عدم قبول عمله، لا أن يرى لنفسه بهذه العبادة فضلاً على الله أو على عبيده، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون]، قالت عائشة رضي الله عنها: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»(٢).

ولئن وجد المرء ممن حوله تقصيراً في النوافل، فليكل ذلك إلى الله، فكم من إنسان عنده من العبادات القلبية دون العبادات الظاهرة ما سبق به الكثير من العُبَّاد، كما مر معنا في قصة

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٧٢ (١٩٩) وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٢٧ (٣١٧٥) وصححه الألباني.

الصحابي-الذي شهد له النبي ﷺ بالجنة ثلاث مرات- مع عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الآفة الرابعة-الغلو في العبادة: وقد مرَّ معنا أن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، فينبغي التنبه إلى ضرورة التوسط والاعتدال في العبادات المشروعة امتثالاً لإرشاده عليه السلام حيث قال: «**إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه**»[1]، وينبغي ألا يكلِّف الإنسان نفسه ما لا تطيق، قالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: من هذه؟ فقلت: امرأة لا تنام تصلي. قال: «**عليكم من العمل ما تطيقونه فو الله لا يمل الله حتى تملوا**»[2]، فالنبي ﷺ كان يوصي بالاعتدال في العبادات كلِّها، ولما جاءه عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما -قال له: «**يا عبدالله! ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإنَّ لزَوْرِك[3] عليك حقاً، وإن بحَسْبِكَ أن**

---

(١) البخاري ١/ ٢٣ (٣٩).

(٢) البخاري ١/ ٢٤ (٤٣)، مسلم ١/ ٥٤٢ (٧٨٥) واللفظ له.

(٣) الزَّور : الزائر.

تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كلِّه. فشددت فشدد عليَّ. قلت: يا رسول الله إني أجد قوة؟ قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه». قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر». فكان عبدالله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

وفرق بين النهي عن الغلو وبين الحض على مجاهدة النفس في العبادة، فالأخير مطلوب لشحذ الهمة وإخراج أفضل ما يستطيعه الإنسان، فإن وصل إلى هذه المرحلة فلا ينبغي له أن يزيد بحيث يصل مع نفسه إلى حد الإكراه على العبادة، ولهذا يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن للقلوب شهوة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند تفرقها وإدبارها»[2].

الآفة الخامسة-ترك العمل أو التقصير فيه: وهذا يعرض لكثير من العُبَّاد، حيث يمضي عليهم زمان في العبادة، ثم تفتر الهمم وتكلُّ العزائم، فيترك العابد شيئاً من صلاته أو صيامه أو

---

(١) البخاري ٢/ ٦٩٧ (١٨٧٤)، واللفظ له، مسلم ٢/ ٨١٢ (١١٥٩).

(٢) الفوائد لابن القيم ١/ ١٤٧.

أوراده، وهذا مما ينبغي تداركه لقوله عليه السلام: «**أحبُّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قَلَّ**»[1]، وقد يكون هذا التقصير بسبب الملل، إما بسبب تكليف النفس بما لا تطيقه وقد مرَّ الكلام عليه، أو بسبب رتابة العمل، فإن النفس إذا ألفت شيئاً قد تملّه، ولذلك نجد من سيرته عليه السلام أنه كان ينوِّع في العبادات، فنجد لدعاء الاستفتاح في الصلاة أكثر من صيغة، ولأذكار الركوع والسجود، وللتشهد والصلاة على النبي ﷺ كذلك، ونجده عليه السلام يصوم الإثنين والخميس، ويحض على صيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وكان من سيرته – عليه السلام – كما قالت عائشة رضي الله عنها أنه: «يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم»[2].

وقد يكون لهذا التقصير سبب آخر وهو الانشغال بشؤون الحياة وتصرفاتها، وعلاج ذلك إنما يكون بتنظيم الأوقات،وذلك بجعل أوقات العبادة أصلاً لا مجال للمساومة عليه، فيتم ترتيب باقي الأعمال بناء على أوقات العبادة، فمن الناس من يعتاد

---

(١) البخاري ٥/ ٢٢٠١ (٥٥٢٣)، واللفظ له، مسلم ١/ ٥٤٠ (٧٨٢).

(٢) البخاري ٢/ ٦٩٥ (١٨٦٨)، مسلم ٢/ ٨٠٩ (١١٥٦).

الذهاب إلى الحرم كل رمضان فلا يغير هذا أبداً، ومنهم من اعتاد قيام الليل فلا يتركه أبداً، ومنهم من اعتاد الذهاب يوم الجمعة في الساعة الأولى فلا يتركه أبداً، فينبغي للعابد أن يجعل أوقات عبادته من صلاة وقيام وذكر ومناجاة هي الأساس الذي تُبنى بقية الأعمال الدنيوية عليه، أي: أنه يعطي لشؤون الحياة المعتادة ما فضل عن وقت عبادته لا العكس، مع مراعاة قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، وقوله عليه السلام: «**فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقاً**»(١).

(١) سبق تخريجه.

الوقفة الأخيرة: نكتة لطيفة

ذلك أن الله ﷻ بعد أن بيَّن في سورة الأنبياء الكثير من صفات من ذكرهم فيها من الرسل الكرام، قال في خواتيم السورة: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين؛ وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم»[1]، ومن أولى ما يدخل في ذلك ما ذكره الله سبحانه وتعالى في السورة من صفات عباده المرسلين، فإن تدبر هذه الصفات ومحاولة التحلِّي بها، من أنفع الأمور في الدارين بالنسبة لعباد الله الصالحين.

لقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- كلمة: (عابدين) في السورة على سبيل المدح في موضعين سابقين، أثنى في الأول على بعض

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٠.

رسله الكرام، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء]، وبيَّن في الثاني فضله على نبي كريم وصفه بقوله: (نعم العبد) وهو أيوب عليه السلام، حيث كشف ما نزل به من ضر وبلاء فقال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ثم ختم الآية ببيان أن هذا ليس خاصاً بأيوب عليه السلام، بل بكل عبد يتأسَّى به في صبره على البلاء فقال: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤]، فمن هنا تظهر مناسبة هذه الخاتمة الكريمة للسورة مع ما سبقها، حيث يظهر التلازم بين التحلِّي بصفة العبودية الحقة وبين التأسي والاقتداء برسل الله عليهم الصلاة والسلام.

خاتمة

وفي الختام، فإنني أدعو الله ﷻ أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله عوناً لي ولإخواني من الدعاة والمصلحين والمربين، كي نقتفي آثار من سبقنا من أهل الخير والفضل، ممن جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، وبين العبادات القاصرة والمتعدية، وبين عبادات الظاهر والباطن، فلم تشغلهم هذه عن تلك، فبارك الله لهم في دعوتهم، بفضل ما كان بينهم وبينه من صدق في العبودية، واجتهاد في العبادة، فما كان في كلامي من حق فمن الله سبحانه وبفضل منه ومنَّة، وما كان فيه سوى ذلك فمني ومن الشيطان، وأنا راجع عنه ومستغفر ربي منه.

هذا والله أعلى وأعلم ورد العلم إليه أسلم، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على عبدك ونبيك محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهـــرس

الـمقدمـــة ٥

الوقفة الأولى: الجانب التعبدي... الواقع والأسباب..... ١٤

السبب الأول – دعوى الانشغال بالأهم:..... ١٦

السبب الثاني-دعوى التعارض والتزاحم:..... ١٩

السبب الثالث – دعوى الفعل القاصر والمتعدي: ٢٢

السبب الرابع-البعد عن تدبر القرآن:..... ٢٥

السبب الخامس- الجهل بسير المصلحين: ٢٦

السبب السادس – اختلال ميزان التقييم: ٢٦

السبب السابع – فاقد الشيء لا يعطيه:..... ٢٧

السبب الثامن – الجهل بأن العبادة مما يستعان به:..... ٣٠

الوقفة الثانية: مفهوم العبادة الشامل..... ٣٣

الوقفة الثالثة: أهميـــــة إصلاح القلـــب..... ٤٧

الوقفة الرابعة: من أعمال القلب المنسية..... ٦٠

الوقفة الخامسة: الصفات الذاتية وأثرها في الإصلاح: ٧٠

الوقفة السادسة: من صفات الأنبياء عليهم السلام ٨٦

الوقفة السابعة: صور معاصرة مشرقة ١٠٩
الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله: ١١٢
الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–: ١١٦
الشيخ عبدالله بن يوسف الوابل رحمه الله: ١١٧
الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم رحمه الله: ١١٨
الشيخ محمد بن صالح المنصور رحمه الله: ١٢١
الوقفة الثامنة: صلاح النساء وأثره في مسيرة الإصلاح ١٢٤
الوقفة التاسعة: أثر الإصلاح على حماية المجتمع..... ١٣٨
الوقفة العاشرة: عبادات المنافقين وأثرها على مسيرة الإصلاح..... ١٤٥
الوقفة الحادية عشرة: يوم الجمعة وفضله ١٥٥
الوقفة الثانية عشرة: أثرُ العبادة في الثَّبات عند الفتن ١٦٩
الوقفة الثالثة عشرة: مـــن آفات العبـــاد ١٨١
الوقفة الأخيرة: نكتة لطيفة..... ١٩٢
خاتمة..... ١٩٤
الفهـــــرس ١٩٥

وكانوا لنا عابدين

أ.د. ناصر بن سليمان العمر
المشرف العام على موقع المسلم
WWW.almoslim.net

الطبعة الثانية

دار الحضارة للنشر والتوزيع

دار الحضارة

ردمك : ١-٨٣٧٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

ISBN 603- 00-8370-1

6 996642 440114 10 SR.

شركة مطابع نجد التجارية

ص . ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥ - الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
جوال: ٠٥٠٦٦٦٠٧٢١ - فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩ - فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: تليفون ٠٢/٦١٤٣٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٣٩٦٠ - جوال: ٠٥٠٧٧٧٠٤٢١
بريد إلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com